

جورج برنارد شو

المسيح
ليس مسيحياً

المسيح
ليس مسيحياً
(مقدمة لسنجية - اسد وكلس والاسند)

جميع الحقوق محفوظة
لدار الطبيعة - بيروت
ص.ب : ١١١٨١٣
تلفون : ٢٥٧.١٧٨
٣٠٩٤٧٠

الطبعة الاولى
آذار (مارس) ١٩٧٣
الطبعة الثانية
آذار (مارس) ١٩٧٩

جورج برنارد شو

المسيح ليس مسيحياً

(مقدمة لسجّية «اشدروكس والاسد»)

ترجمته: جورج فتاح

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الفهرس

٥	الفصل الاول : مقدمة فى افراض المسيحية
٣٧	الفصل الثاني : متى
٥٨	الفصل الثالث : مرقس
٦١	الفصل الرابع : لوقا
٦٩	الفصل الخامس : يوحنا
٧٩	الفصل السادس : قبول الاناجيل
٩٤	الفصل السابع : السيوعية الجديدة
١١٥	الفصل الثامن : سوع فى الزواج والاسرة
١٢٥	الفصل التاسع : ما بعد الصلب
١٥٠	الفصل العاشر : النقد الاعلى

الفصل الأول

مقدمة في اغراض المسيحية

لماذا لا تعرض المسيحية الى التحكيم العقلي ؟

بعد ان مر الفان من السنين على التمسك العنيد بالصيحة القديمة : «ليس هذا الرجل بل برأبا» (١) قد يخيل لنا من العبث

١ - برأبا Barabbas هو احد الثأرين اليهود على الحكم الروماني نجم في عهد المسيح وكان يهاجم المخافر والدوريات العسكرية الرومانية وينهب ويقطع الطرق ، قبض عليه بعد كثير من العناء وحكم بالموت الا انه لم ينفذ فيه وبقي سجيناً حتى اذا لقي القبض على المسيح وجيء به امام التتراوك (الحاكم الروماني) بيلاطس ذهب اليهود اليه لكي يثبت حكم الموت الذي اصدروه على يسوع وكانت السلطة الرومانية لا تسمح بقتل المجرم الا بعد ان تصادق على

الباطل ان نخوض في الموضوع . مع هذا ، فالامر يبدو وكأن
 الفشل والاختفاق حليف برآبا وان ظلت يده اليمنى قوية باطشة،
 وبقيت امبراطوريته وانتصاراته وملايينه ومبادئه الخلقية وبيعته
 ودساتيره السياسية قائمة . هذا الرجل لم يمن بالاختفاق فسي
 الواقع ، غير ان العقول لم تبلغ بعد النضج الكافسي لتجريب
 طريقته ، على أنه كسب نصرا عجيبا واحدا ؛ وهو سرقة اسم
 «ذاك الرجل» (١) واتخاذ صليبه علما وشعارا . ان في هذا
 نوعا من التكريم بل نوعا من ولاء يشبه ولاء قاطع الطريق الذي
 يخرق كل قانون تم يدعي بأنه مواطن مخلص من رعايا ذلك الملك
 الذي قام بسن تلك القوانين المخروقة . لقد كان يلازمنا دوما ،
 شعور غريب بأننا وان صلبنا المسيح على عود فانه استطاع بشكل
 ما ، ان يقبض على النهاية الصحيحة منه (٢) وانه لما كان افضل

ذلك . وكان من التقليد ان الحاكم يطلق لهم في كل عيد سجيناً ، اي واحد
 ارادوا فسألهم بيلاطس «من تريدون ان اطلق لكم ؟ ابرابا ام يسوع الذي يقال
 له المسيح ؟» لكن الاحبار والشيوخ اقموا الجموع بأن يطلقوا برابا ويهلكوا
 يسوع . فقال لهم الحاكم : «ايهما تريدون ان اطلق لكم ؟» فقالوا «برابا» فقال
 لهم بيلاطس «لماذا اعمل بيسوع الذي يقال له المسيح ؟» فاجابوا حميماً
 «ليصلب» . وهذا ما يعصده هنا (شو) بقوله : «ليس هذا الرجل تطلق سبلي
 اطلق برابا» . فبرابا بالنظر الى (شو) هو رمز لكل من يعتبره قد تجاهل او اساء
 تفسير تعاليم يسوع ، وبرنارد شو هنا يعكس التفضيل العصري للماديات على
 الروحيات . (وردت حادثة برابا في الانجيل الاربعة ، متى : ف ٢٦ ، مرقس :
 ف ١٥ ، لوقا : ف ٢٣ ، يوحنا : ف ١٨) (جميع حواشي الكتاب للمعرب) .

١ - «ذاك الرجل» يقصد به يسوع المسيح .

٢ - **The right end of the stick** تعبير انكليزي يحا وقد آرنا المفيد
 بحرفيته لكيلا نخلّ ببلافته . ومعناه: ان شيئاً مميّناً قد فهم فهماً صحيحاً . او
 ان عملاً من الاعمال قد انجز بخير ما يمكن .

منا فعلينا ان نحاول تطبيق مبادئه. وفي هذا المجال جرت محاولة شاذة او محاولتان اقدم عليهما اناس تنقصهم الكفاءة ، مثل قيام شيعة (مملكة الله) في مونستر (١) ، تلك المحاولة التي انتهت بعملية صلب اشد وحشية من تلك التي وقعت في قلفاري (٢) . حتى ان الاسقف الذي تقمّص في تلك العملية دور (حنان) ، عاد الى بيته ومات من فرط الرعب . على ان هناك رجسالا ذوي مسؤولية وحول أمسكوا ، ولم يقوموا بمحاولات كهذه المحاولة ! ان هذا العالم القادر الممتلئ بالكفايات والكثير المال بقسي منذ عملية (الصلب) حتى يومنا هذا (برآبياً) لامسيحيا . ولم توضع عميدة المسيح الخاصة طوال هذا الزمن موضع تطبيق سياسي او اجتماعي شاملين . اني لست بأكثر مسيحية من بيلاطس او مما كنت انت ايها القارئ الكريم ، ومع هذا فأنا افضل يسوع على حنان وقيافا (٣) تفضيلا عظيما لا يمكن قياسه . وانا على استعداد للاقرار والتسليم - بعد ان تأملت الدنيا وطبائع البشر حوالي ستين عاما - بالأ طريق هناك للخلاص من الشقاء البشري.

١ - Munster هي مدينة في (بروسيا) . كان المدعو جور قد خرج اليها من مدينة ليدن Leyden الهولندية في العام ١٥٢٣ بجمعة تبشير ووعظ ديني ، فانضم اليه اشباع كثيرون واصبح رعيما وأبا روحيا لغفلة اطلق عليهم اسم «الفديسين» ، ونصب جون هذا ملكا على مونستر فحكما عاما كاملا . الا ان اسقف المدينة ، قام بثورة مضادة عليه انتهت بانزاله عن عرشه وتمذيبه وقتله عام ١٥٢٦ . هذا (الزنديق) ولد في ليدن ١٥٠٦ وامتهن الخياطة ثم اصبح صاحب خمارة قبل ان يياشر حجة الدين الى مونستر .

٢ - الموضع الذي نصب عليه صليب يسوع في الجلجلة .

٣ - (حنان) (اسم عبري معناه نعمة الله او هبة الله) رئيس الاجبار اي الكهنة (ت: ما بين ٦ و ١٥ للميلاد) حينه كيرينيوس حاكم سورية الروماني رئيسا وخلفه الحاكم الموكل على اليهودية (فاليريوس غراتوس) كان اول من اذان المسيح بعد

الا الطريق التي كانت ستجدها ارادة المسيح على الارجح لو ان شاء الاضطلاع بمهمة السياسي العصري الواقعي . ارجو منك ابيه القارىء الا يفرغ صبرك مني عند هذه النقطة الاولى: فتقبل كتابي وتقذف به جانبا ؛ اؤكد لك اني مفكر علمي المنجى عصري النهي مرتاب بقدر ما تشتهي وتحب . ولك مني ضمان ايضا بأن لم الماما كافيا بالاقتصاد ، والسياسة ، المام يزيد كثيرا عما كساد ليسوع منها . وتطمئن ايضا بأن في امكاني عمل اشياء / يستطيعها هو . انى بحسب كل المقاييس (البرايئة) اعلى مقام واثبت خلقا واكثر غنى بالشعور العملي منه . اني لا اكن عطفـ للمتشردين ولا لمن يتحدث لاجلهم ايضا . ولو كنت بيلاطس لوجب عليّ ان ادرك بأوضح مما ادرك هو ، ضرورة تخفيف الهجمات على النظام الاجتماعي الحالي مهما بلغ ذلك النظام من النسخ . تلك الهجمات التي يشنها اناس لا علم لهم بأصول الحكم ولا قدرة لهم على بناء ماكنة سياسية تطبق آراءهم . اناس يعملون بوحى الوهم الخطر القائل بأن نهاية العالم موشكة . اني لا ادافع عن امثال سافونارولا (١) ولا جسون الليدني (٢) فهؤلاء ثقبوا

القبض عليه . نزل عن منصبه لقيام صهره ولكنه بقي محتفظا بسلطة الحبر حتى بعد نروله وفقا للتقليد . وكان (قيام) عظيم الاحبار يوم حكم على (يسوع) بالموت وظل الى ٢٧ - ٢٦ م .

١ - Fra Girolamo Savonarola (١٤٥٢ - ١٤٩٨) رئيس دير القدس مرقس الدومنيكاني في (فلورنسا - ايطاليا) . كان واعظا بليغا شديد التزمته، طالب بالاصلاح الديني والسياسي وقاد حركة ديمقراطية ضد ادواق فلورنسا وطردهم من الحكم وألف مجلسا تشريعيًا منتخبًا ولم يظل به الزمن فقد قبض عليه وحوكم وأعدم بتهمة الزندقة وأحرقت جثته .

٢ - تقدم التعريف به ، انظر هامش : ١ ، صفحة ٧ .

السفينة (١) قبل ان يتعلموا بناء رمث فبات من الضروري قذفهم الى البحر لانقاذ البحارة. اقول هذا لاضع نفسى في موضع صحيح بين مجتمع محترم من البشر . ولكن ينبغى لي البقاء مصرا على قولي بأنه اذا كان يوسع يسوع حل المشاكل العملية بدستور اشتراكي، وشريعة مسنونة مقننة ، تهدف الى معالجة اجتماعية خالصة من روح الانتقام ومن العقاب ، وبالاعتراف الكامل من الانسانية جمعاء بالمسؤولية الالهية فان مبادئه الممتازة تلك ستكون هي الاقتصاد المنسجم مع العقل السليم .

واقول «ممتازة» لان انسانية يسوع الشعبية وخضوعه لطرفي الزمان والمكان (اعني قبوله طراز الحياة السورية (٢) السائسدة حينذاك) اغرقت عقيدته في كثير مما هو غير حقيقي ، ومما هو خيالى حتى بات لا تميزه بأي شكل من الاشكال عن اي من اولئك السربان ذوي اللحى ! على ان امتال هذه العفائد ذات الصفات

١ - Scutting The Ship تعبر انگليري صميم معناه الحربي «اغراف

السفينة باحدات نفوب في قاعها او جوانبها» ويعمد الى ذلك في الحرب عادة لكيلا تقع السفينة في يد العدو وقد استخدم (شو) هذه العبارة قاصدا بها ان سامونارولا وحوون الليدني حاولا القضاء على النظام السياسي الراهر دون ان يتقدما بتديل عنهما .

٢ - كانت اللغة السريانية العديمة (الارامية الحديثة) هي لغة التحاطب لسكان ما يؤلف اليوم العراق وسورية ولبنان وفلسطين - في ذلك الحين ولم يكن اليهود يتكلمون العبرانية بل السريانية ايضا (فالعبرية لغة التوراة ولا تعرفها العامة) كما ان العادات السريانية (او السورية بكله أدق) كانت لها السيادة كذلك . والى هذا يشير شو ، أجداً كانت اشارته ام عزلا .

العامة لا تستبطن «مسيحية مخصوصة» أكثر من أرخاء لحية (١)،
والاشتغال في دكان تجارة ، أو من الاعتقاد بأن الأرض مسطحة
وإن النجوم قد تسقط عليها كالوابل الهتن ! إن المسيحية تجتذب
الآن اهتمام الساسة العمليين ، بسبب احتوائها تلك العقائد التي
ميزت المسيح عن اليهود وعن «البرابيين» عموماً ونحن من جملتهم!

لماذا يسوع بالنات وليس غيره ؟

لست أعني على أية حال بأن تلكم العقائد كانت غريبة عن
المسيح . العقيدة الغريبة عن إنسان قد تكون خيالا ليس غير إلا
إذا كان استيعابها قد اعتمد على تطور وكفاية إنسانيتين نادرتين
بحيث لم يحزها إلا إنسان واحد موهوب بصورة استثنائية فائقة
للعادة . إلا أنها حتى في هذه الحالة قد تكون عقيمة باطلة لتعذر
انتشارها . إن المسيحية هي خطوة في التطور الأخلاقي مستقلة
عن أي وأعظ . إن لم يوجد يسوع (ومسألة وجوده بشكل آخر
يختلف عن وجود هاملت (٢) شكسبير وإن كانت مسألة كثر فيها
الإخذ والرد) فإن تولستوي كان سيبقى يعلم ويفكر بطريقته ،
ويختلف مع المذهب اليوناني أيضا (٣) مثلما فعل سواء سواء .

-
- ١ - معظم الرسامين يرسمون وجه يسوع بلحية ، كما إن يوسف روج أمه
كان نجارا في الناصرة كما جاء في الانجيل .
 - ٢ - يشك بعض الكتاب في أن الأمر هاملت بطل مسرحية شكسبير الشهيرة
لا وجود له تاريخي وأنه على الأرجح اختراع .
 - ٣ - يشير شو هنا إلى الخلاف المعروف بين الروائي الروسي العظيم
والكنيسة الأرثوذكسية .

لقد قام بعض الناس بممارسة عقائد هؤلاء الناس (١) بمدى واسع مع ان قوانين كل البلاد اعتبرتها في الواقع عقيدة مجرمة . لقد كان عدد كبير من دعائها ملحدين مجاهدين في الحادهم . ولكن لسبب من الاسباب اختار خيال الانسان الابيض شخص (يسوع الناصري) ليكون (مسيحا) (٢) وعزا اليه كل العقائد المسيحية . ولما كانت العقيدة هي المهمة ، ولما كان اي رمز من الرموز لا غبار عليه كأي رمز آخر شريطة ان يكون له نفس المعنى في مفهوم الجميع ، فلن تراني هنا اثر في هذه الساعة موضوع مدى صحة الاناجيل وكم اقحم فيها من الادبيات اليونانية والصينية . ان ما دون من اقوال معينة لـ (يسوع) لا يدحضها او يبطلها اي دليل على ان كونفوشيوس (٣) قالها قبله . وان اولئك الذين يزعمون بشكل جازم لا مرد له بأن اياه الله ، لا يمكنك انت ان تدحض زعمهم وتسكتهم بقولك لهم ان هذا الزعم نفسه قد اسند للاسكنسندر ولاوغسطس . وانا الآن لا اهتم بصحة الاناجيل (٤) (وبعضها مدونات

١ - اعني اولئك الذين خرجوا على التعاليم المسيحية من امثال تولستوي وكوتوا لانفسهم عقائد خاصة ومفاهيم يشررون بها .

٢ - من «مسح» اي دهن بالزيت . كان الاقدمون يمسحون الملوك عند تسنمهم العرش . واليهود يمسحون عظيم الاجبار عند تنصيبه . واطلقوا هذا الاسم على رسول الله الذي كانوا ينتظرونه لخلصهم (يوحنا ف ٤-٣٥) بيد انهم توهموا ان المسيح سيكون متفلا سياسيا ديوييا اكثر منه رسولا يعلن ملكوت الله ويكشف للناس اسراره ويدعوهم الى التوبة والبر وينعلمهم من الشيطان بالامه وموته .

٣ - فيلسوف صيني (حوالي ٥٥٠ - ٤٧٨ ق م) . ومجمل فلسفته هي «لا تعمل للآخرين ما لا ترغب في ان يعملوه لك» وقد اوصى يسوع بهذا ايضا .

٤ - الانجيل من كلمة (ايوانجليون) اليونانية ، وهي اسم جنس معناه البشري او البشارة ، وتدل كلمة انجيل في العرف المسيحي على البشارة التي حملها يسوع الى الناس . وسميت الكتب الاربعة التي دون فيها متى ومرقس ولوقا ويوحنا «بشارة يسوع» بالاناجيل الاربعة .

يحوي حقائق، لاني لا اعمل عمل محقق عدلي ، بل ادير اضواءنا
العصرية لالفيها على افكار في تلك الاناجيل استطاعت ان تلمص
من البقية لانها مخالفة صراحة للتطبيق العام ، والادراك البيهبي ،
والمفهوم العام . مع انها قد انتجت - عندما لاكتها الريبة العنيدة
وعدم الرغبة في الخضوع للسلطة والعادة ، انطباعا لا يفاوم بأن
المسيح وان رفضه السلف بوصفه رجل أحلام غير عملي ، ونقد
فيه حكم الموت معاصروه بوصفه فوضويا خطرا ومجدفاً مجنوناً،
كان في الواقع اعظم من قضائه .

اكان يسوع جباناً ؟

اني لعلني يقين تام بأن الانطباع عن هذا التفوق لا يتخلف في
كل انسان . حتى في أولئك الذين يقرون بقبالية مفرطة له . واذا
نحن نحينا جانبا تلك الكتلة الهائلة من المفاهيم الخاصة بعبادة
المسيح التي فرضت بالتعليم المستمر الطويل وليس فيها اية ميزة
حقيقية ، فانك لتجد بين الناس المتحررين حقاً في التفكير
بالموضوع كما يشتهون - مقداراً كبيراً ممن امتلأ قلبه بالكسره
الصميم ليسوع والسخرية بفشله في انقاذ نفسه والتغلب على
اعدائه بالشجاعة الفردية ، وسعة الحيلة كما فعل محمد (ص) .
لقد سمعت اشخاصاً في انكلترا إرتبوا تربية مسيحية ، يعبرون
من هذا الشعور بلجاجة تفوق كثيراً ما يعبر عنه المسلمون الذين
كانوا مثل نبيهم - في منتهى اللطف مع يسوع عندما منحوه جانبا
واسعاً من اجلالهم واحترامهم ، يساوي على أقل تقدير الاحترام
الذي تكنه ليوحنا المعمدان . الا ان هذا الازدراء الانكليزي
البولدوكي (1) نشأ عن سوء فهم تام لاسباب يسوع الخاصة التي

1 - Bulldog : فصيلة من الكلاب مشهورة في انكلترا ، ويرمز هذا
النوع الى العناد المتناهي في الخلق الانكليزي .

دعته الى الخضوع من تلقاء نفسه لآلام التعذيب ، واحتماله
سكرات الموت . ان العلماني رجل العصر (١) كثيرا ما تراه مصرا
اصرارا شديدا على ان يرى يسوع كما يرى اي بشر آخر مثله
وليس اكثر ، حتى لتراه يقع دون ان يدري في وهم مؤداه ان
المسيح نفسه يشاطره وجهة نظره هذه ! لكن اسفار العهد الجديد
(وهي المرجع الديني الاساسي لاي اعتقاد بوجود يسوع حقيقي)
نوضح لنا بان يسوع آمن في ساعة موته بأنه هو المسيح اي
الشخصية الالهية . وما دام الامر كذلك فمن السخف ان ننتقد
الآن سلوكه امام بيلاطس ، كأنما هو مثل العقيد روزفلت او
الاميرال فون تريبتز او (محمد بن عبد الله) نفسه . وسواء في
ذلك اقبلت انت ايمانه بألوهيته بالنمام والكمال ، مثلما فعل
القديس بطرس او رفضته بوصفه وهما من الاوهام ادى يسوع
الى ان يتقبل العذاب طائما ، ويضحى بحياته دون ان يبسدي
مقاومة لاعتقاده بأنه سيقوم من بين الموتى وينبعث مجددا على
الفور ، فعليك كذلك ان تقر بأنه لم يتصرف كما ينصرف الجبان او
الشاة ، وانما اظهر جلدا بشريا عظيما في احتماله تجربة قاسية
كان بمقدوره ان يدفعها عن نفسه بعين النجاح الذي حالفه عندما
طرد الباعة والمرايين من الهيكل . « يسوع اللطيف الحليم
الوديع ! » (٢) انما هو اختراع عصري ضعيف ، بكاء يقطر دموعا ،

١ - استعملنا كلمة العلماني لتعبير Secularist وهو الشخص الذي
يرفض معتقدات الدين التي تعوق الطبيعة ولا يقبل بعقيدة لا يمكن اخضاعها
للعقل .

٢ - «م دخل يسوع الهيكل وطرده جميع الذين يبيعون ويشتررون في الهيكل»
وقلب مناضد الصيارفة ومقاعد باعة الحمام وهو يقول له «مكتوب بيتي بيت
الصلاة وانتم تجعلونه مغارة لصوص» - (مشيرا الى كلام ارميا ٧-١١) وكسان

لا سند يدعمه من الاناجيل . اما متى الانجيلي (١) فتراه يتردد في الصاق مثل هذه الصفات بيهوذا المكابي (٢) ، كما الصقها يسوع . حتى لوقا (٣) الذي يقدم لنا يسوعا مؤدبا كريما ، فانه لا يلصق به صفة الخنوع والذلة . ان تصويره بشكل راعي بيعة هزلي الطابع اكثر اناة وصبرا من الدخول في مشاحنة مع شرطي ، وتقديمه كموضع سخر الجميع وفكاهاتهم هذه الصورة قد تكون مفيدة في غرف الاطفال حيث تستخدم لتهدئة شغب الصغار ، اما ان تكون مثل هذه الشخصية الخائفة محور اهتمام العالم ، فهو لعجري اسخف جدا من ان يكون موضع نقاش . قد يتكلم البالغون من الرجال والنساء بعطف عن انسان تكرة ضعيف الحيلة ينطق بمشاعر تستهوي النفس لا خير فيها عندما يستنجد به احدهم . على ان الناس لا يتبعونه ، ولا يفعلون ما يأمرهم به لانهم لا يريدون

السيارفة يبدلون النقود لليهود الذين يريدون تقريب الدبالح لله . ويعتبر هذا العمل من اعمال المنف القليلة التي اتاها المسيح . ففي رواية يوحنا الانجيلي انه كان يسمم سوطا مجدولا لضربهم . واما عبارة «يسوع اللطيف» . *Gentle Jesus, meek and mild* فهي عنوان ترجمة انكليزية شهيرة . ١ - كاتب احد الاناجيل الاربعه المعروف باسمه . كتب انجيله بالارامية في حدود العام (٤٤ م) لمسيحي فلسطين وفقد النص الارامي وبقيت ترجمته اليونانية .

٢ - قائد يهودي ، تزعم اليهود في ثورتهم على السوريين . توفي في العام ١٦٠ ق.م .

٣ - لقي بولس الرسول في طراوس (٤٤ م) فصار رفيقا له ومعاونوا ولسق به حتى استشهد بولس في روما ، كان طبيبا ولا نمرف اين عاش بعدها الا انه دون انجيله في حدود عام ٦٥ او ٦٧ ودون اعمال الرسل وهو جزء من العهد الجديد ما بين ٦٨ و ٨٥ م .

مشاطرته فشله وعاره .

أكان يسوع شهيدا ؟

من المهم هنا ان نستبعد عن رأسنا الفكرة التي اتخذ بعضها التصريح بها ديدنا : وهي ان يسوع مات بسبب آرائه السياسية والاجتماعية . هناك عدد كبير من الذين استشهدوا في سبيل آراء من هذا النوع . الا ان يسوع لم يكن احدهم . اذ لم يسر جدوى في الشهادة اكثر مما رأى غاليلو فيها ، كما تبين لنا مرة من اقواله (١) . وما اعدمه اليهود الحياة الا بسبب تجديفه اذ ادعى انه الله . وببلاطس الذي كانت مسألة هذا الادعاء بالنسبة له مجرد هراء يمت الى الشعبذات والخزعبلات بصلة مباشرة ، تركهم ينفذون فيه حكم الموت كأرخص وسيلة للابقاء على هدوتهم مسندا اليه تهمة رسمية وهي ارتكابه جريمة الخيانة العظمى بحق روما حين زعم انه ملك اليهود (٢) . ان قضائه لم يتهموه ظلما او

١ - هناك الكثير في الاناجيل مما يدل على ان المسيح لم يكن يجهد الاستسلام للموت في سبيل العقيدة (الشهادة) منها مضمون وصايا لتلاميذه في (متى ٢٤: ١٠) وكهروبه واختفائه عند مقتل يوحنا المعمدان .

٢ - في عرف اليهود ان (مسيحهم) الاتي سيكون ملكا عليهم . ولذلك كسان عظيم الاحبار قبالا يريد ان يثبت ادعاء يسوع بأنه المسيح . فلم ينكر (حسبا قول متى) ولذلك لم يسعه ان ينكر عندما جرى به الى ببلاطس الذي نظر الى التهمة من وجهة النظر الرومانية لان الادعاء بالملك على اليهود يتضمن مناواة سلطان روما عليهم والعمل على تقويضه وهي تهمة تستحق الموت من وجهة النظر الرومانية .

زيفا ولم ينكروا عليه فرص الدفاع عن نفسه بصورة كاملة .
فالأجراءات كانت قانونية وصحيحة الى آخر حد . وببلاطس الذي
كان ينظر في قضينه «استئافا» وقف الى صفه وعطف عليه
واحترق قضاته الأول ، وكان على ما يبدو شديد الرغبة في ان
يصون حياته ، الا ان يسوع اقر بالتهمة بدل انكارها وهو يعلم
يقينا ما هو مقدم عليه . فقد اعلن عن ذلك قبلا وقام بالعمل نفسه
فانفصل عنه بعض تلاميذه ورجم في الشوارع بسبب ذلك . انه
لم يكن يكذب بل كان يؤمن حرفيا بما يقول وكان من الطبيعي جدا
ان يتهول عظيم الكهنة اقواله : هوذا عظيم احبار دين يواجسه
واعظا جماهريا من وعاظ الشوارع الهراطقة ناطقا بما يعتبره هو
كفرا تسنيا وقحا . اما الحقيقة وهو ان هذا الكفر الوقح كان
بالنسبة ليسوع تعريرا بسيطا لواقع ، وان هذا (الواقع) بات منذ
ذلك الحين فهو قبلة انظار كل شعوب الغرب على علاقته ، فلا
تضمن قط طعنا في صحة الاجراءات المنخضة ضد يسوع ولا
نعطينا الحق في اعتبار حثان وقيافا أسوأ من رئيس اساقفة
كانثربري او عميد كلية ايتون . ولو ان الاتهام الذي وجه الى
يسوع وجه اليه الآن في محكمة عاديه ، فسنقوم هذه المحكمة
بعرضه على طبيبين لاجراء الفحص عليه ، وسيجد هذان الطبيبان
ان وهما استولى على عقله ، وسنفرر المحكمة بناء على ذلك بأن
المتهم لا يملك القدرة على الدفاع عن نفسه . هذا هو الفرق برمنه
على اني ارجو منك ان تلاحظ هذا ، وهو انه عندما يتهم احدهم
امام احدي محاكمنا بأنه مضر على الزعم بأنه ضابط عائد مسن
جبهة القنال لتقلد وسام (صليب فكتوريا) (1) من يد الملك ! في
حين انه عامل ميكاني (وتلك قضية وقعت فعلا قبل فترة مسن

1 - هو ارفع وسام حربى في انكلترا .

الزمن) ، فلن يفكر احد في معاملته معاملة شخص مصاب بوهم ، بل سيعاقب بجريمة انتحاله صفة كاذبة ، لان ادعائه قابـل التصديق فهو اذن ادعاء افضل من سابقه . والامر كذلك بالضبط حين ادعى المسيح بالالوهية . ولما كان عظيم الكهنة ينتظر مجيء المسيح فعلا ، فقد اضطر الى اعتبار هذا الادعاء من يسوع جديا ومقصودا ، فهو والحالة هذه قد يضل الناس ويسلمهم الى متاهة خطيرة جدا ولذلك عامل يسوع معاملة الدعي الكاذب والكافسر المجدف ، في حين كان يجب ان يعامله معاملة المخبول المهووس .

الاناجيل ، من غير تحامل

كل هذا سيفقدو لنا واضحا عند قراءة الاناجيل من دون تحامل او اغراض . عندما كنت صغيرا ما قراتها الا وانتاب تفكيري اضطراب عجيب . وبلغ بي الاضطراب حدا من الارتباك المطلق ، بحيث تطلب امر قراءتها مني مجددا حالة روحية خاصة ! كان يسوع طفلا وهو في الوقت نفسه اكبر سنا من الخليقة . كان قابلا للرجم والاضطهاد ، والجلد والقتل وكان في الوقت ذاته إله خالدا غير محدود السلطان قادرا على احياء الموتى واستدعاء «فيالق» من الملائكة وملايين لموته . وكل من ينتابه الشك في هذه الامور بأي وجه من الوجوه ، يمدّ آتما : وهكذا يؤول بك الامر الى انك لا تعود تقلب وجوه الرأي في شأنه ، ولا تقرا عنه الا عندما تضطر اضطرارا . لما سمعت قصص الانجيل تتلى في الكنيسة ، ولما تلقيتها على ايدي الشعراء والرسامين ، خرجت من محتواها بانطباع قد يندهش له الصيني الذي كان قد قرأ

المجموعة كلها دون تحيز او إغراض (١) ! والمرتابون الذين يغلب عليهم الحذر بصورة خاصة ، هم ايضا يتجلبسون الكتاب المقدس على مقعد الاتهام ، ويقراون الاناجيل بقصد استخلاص التناقض والخلاف بين روايات الاناجيل الاربعة ليثبتوا ان كتابها لا يقلون عن صحفيي يوم امس تعرضا للخطأ . هذا كله طرا عليه تفسير عظيم خلال جيلين من الزمن . واليوم قلما نجد من يقرأ التوراة، حتى ان لفة النسخة المجازة صارت تهجر بسرعة ، حتى فسي الولايات المتحدة حيث ما زالت الترجمة العتيقة التقليدية «لسيفر الاسفار ! وكتاب الكتب !» متسكعة متشبثة بقوة تفوق تشبثها بأي مكان آخر باستثناء «اولستر» على ارجح تقدير ! ومهما بين من امر فان الترجمات الانكليزية الحديثة قد عملت كيفما اتفق مستهدفة بذلك انقاذ وضوح هذا الكتاب المقدس ليس الا . ومن السهل اليوم ان نجد كثيرا من المثقفين الذين لم يقرأوا (العهد الجديد) ، ومن الممكن ان نحاول معهم تجربة دفعهم الى قراءة الاناجيل لالتقاط ما يسعهم التقاطه من تاريخ المسيح وخلقيه وافكاره .

الانجيل في هذه الايام غامضة عند المستجدين

بيد انه لا يفيد ان تقرأ الاناجيل بعقلية لم تنهيا الا لتقبيل سيرة حياة غوته مثلا ! انك لن تفهم منها شيئا ، ولن تستطيع

١ - يقصد شو ان الرجل الصيني الذي اعتاد قراءة (كونفوشيوس) واتبع عقيدته الدينية التي تقوم على مفاهيم شبيهة ببعض ما ورد في الانجيل قد يدعس ايضا من امور يجدها في الانجيل تخالف عقيدته .

الاستمرار في القراءة وسيدركك ملل. ونعاد صبر يمنعناك من المواصلة الدائبة في المطالعة الا اذا كنت على بعض معرفه بتاريخ تطبيق الخيال الانساني على الدين . قبل مدة ليس بالطويلة ، سألت احد الكتاب الذين امتازوا بكفاءة ثقافية عالية : هل قام في صباحه بدراسة للاناجيل ؟ فأجابني انه حاول ذلك في وقت متأخر ، واذاف يقول : «لكنني وجدت الامر كله تافها ، حتى اني لم استطع الصبر عليه» ولما كنت اكره ان ابعث احدا ما الى الاناجيل ليعود اليّ بهذه النتائج ، فيحسن بي ان اقدم مختصرا للمقدار المطلوب من التاريخ الديني لجعل الاناجيل وتصرفات يسوع ومصره الاخير مواضيع مفهومة شيقة .

دنيوية الاغلبية

اول خطأ عام يجب الانتباه اليه والتخلص منه ، هو القول ان الجنس البشري يتألف من كتلة عظيمة من المتدينين وقلّة من الملحدين الشاذين الغريبين الاطوار . وفي الواقع ان العالم يحتوي كتلة هائلة من الناس المهتمين بأمور الدنيا ، ونسبة مئوية صغيرة جدا من الاشخاص المنصرفين انصرافا تاما عميقا الى الدين والمنشغلين بامر ارواحهم وأرواح غيرهم من البشر . ومعظم الفريق الثاني يتألف من مؤيدي الديانة السائدة تأييدا يتميز بحرارة العاطفة ، ومن مهاجمي الديانة السائدة بعين الحرارة والحماسة العاطفية . اما الفلاسفة الاصلاء فعدددهم قليل جدا . ولذلك فلن تجد عندك شعبا من ملايين الويرليين (1) ومن نوم بين

1 - نسبة الى جون ويزلي John wesley (1703 - 1791) وهو احد كبار الواعظين المسيحيين ومؤسس المذهب الميثودي Methodist

واحد (١) وإنما ستجد مليون (مستر رجل متزن دنيوي) (٢) و(ويزليا) واحدا مع أتباعه القلة ، و(توم بينا) واحدا مع أتباع أقل . أما الديوثون الفيورون فهم فئة أخرى لا علاقة لها بهؤلاء فئة عاطفية لو لم يتفوق عليها الدنيويون تفوقا عدديا لقلبوا الدنيا عاليها سافلها ، إذ نال الرسول بولس ما يستاهل من تأنيب لاعتزاه ذلك (٣) . ان قليلا من الناس يتمكنون ان يحصوا من بين اصدقائهم الشخصيين ملحدا واحدا ، او اخا بلايمونيا (٤) واحدا وان لم يؤد انقلاب ديني فينا الى الملاذ بالمجتمعات الصغيرة التي تنتمي اليها تلك «الطيور النادرة» فسنعرض حيواتنا مع اناس

١ - Tom Paine (١٨٢٧ - ١٨٠٩) كاتب انكليزي ديني وسياسي ، عاش في امريكا . من كتبه الشهيرة «حقوق الانسان» و«تأملات في النبوة الفرنسية» ضمنه آراء سياسية ثورية كانت مصدرا ونواة لمعظم التشريعات الديمقراطية ، وما زال بعض المحافظين المتزمين الى يومنا هذا يعدون كتاباته خطرة على الافكار .

٢ - الاسم بالاصل هو Mr. worldly wiseman ، وهو احد شخصيات «بويان» في كتابه (مسيرة الحاج The Pilgrim's Progress) الشهير ، وهو كتاب على شكل قصة يمثل رحلة جهاد للنفس البشرية للوصول الى الخلاص والمغفرة .

٣ - يرى بعض المفكرين ومن جملتهم شو ان بولس صاغ من تعاليم يسوع ومن افكاره نوما من العقيدة المسيحية يختلف عن الاهداف التي رمى اليها يسوع من تعاليمه .

٤ - نسبة الى مدينة (بلايموث Plymouth) في انكلترا . فيها نشأ (١٨٢٠) مذهب مسيحي صارم ، لا يعتقد اشياعه بغير التوراة دليلا وهاديا لهم في الايمان وفي الآداب الاجتماعية . غلبت عليهم الزهادة والتشفس والبعد عن اللذائل والتسلية . واستغنوا عن الكنية والرعاة .

ذوي ضمائر لا تحس . مع أناس ذوي جوع وعطش لا إلى الحقيقة ، بل إلى فاخر الطعام ، إلى لسذة الراحة ، وامتياز المركز الاجتماعي إلى شريكات العمر الجميلات ، والرفساء والمرات والرفعة والاحترام ، وبمختصر القول بين أناس ذوي جوع وعطش للحب وللمال ، كائنا ما كانت العقائد التي يرددونها والمعابد التي يقدمون لها فرائض التجلة ويلبسون لها ثياب الاحد . بالنسبة إلى هؤلاء الناس ؛ كل أمثلة وحكمة هي جيدة كسواها ، شريطة ان يكونوا متعودين عليها قادرين على احتمال قيودها دون شعور بضيق او تعاسة . ولأجل الإبقاء على تلك الامثلة تراهم يحاربون ، وينزلون العقاب بغيرهم ويرغمون أتوف الناس الآخرين في التراب دون وازع او تأنيب ضمير ! هؤلاء الفلسطينيين قد لا يكونون « ملح الارض » ، على انهم في الواقع مادة الحضارة وأرومتها . هؤلاء ، ينقدون المجتمع من الدمار بتخريجهم المجرمين والقاتحين ، فضلا عن تصديرهم اشخاصا من أمثال سافونارولا ونبردولنغ . وبما انهم يدركون بذكائهم العظيم ان قليلا من الدين ، يفيد الاطفال ، ويخدم مكارم الاخلاق ، ويبقي الفقراء في راحة ودعة ، او في خوف ورهبة بالوعد بأحسن الجزاء في السماء او بالوعيد بأشد العذاب في السعير ، فلذلك تراهم يشجعون الاتقياء إلى حد معين لا يتعداه . فمثلا لو قال سافونارولا لسيدات فلورنسا بأنه يجب عليهن ان ينزعن جواهرهن وحليهن ويقربنها قربانا وتقديمه لله ، لسارع ذوو الحل والعقد إلى عرض قلنسوة الكردينال عليه واثنوا عليه ورفعوه إلى مقام القداسة ، الا انه اراد ان يحملهم بطريق الاقناع ان يفعلوا ذلك من تلقاء انفسهم فاحتقروه بوصفه واحدا من المشاغبيين الذين يقلقون الراحة العامة .

دين الاقلية ((الخلاصيون))

ان دين الاقلية المتسامحة كان دوما وأساسا هو الدين

الأصيل بذاته . ولهذا لا يتأثر تأثيرا كبيرا بأي تبدل قد يطرا على اسمه وشكله ، ولهذا لا يشق على شعب كالانكليز بلغ درجة عالية من الحضارة ان يهدي الزوج الى الدين الذي يعتنقه ، الا انه لا يستطيع ان يهدي المسلمين او اليهود . يجد الزوج في مذهب «الخلاص» العصري «نسخة» تمنحه قسطا من الراحة يزيد عما تمنحه عقيدته الساذجة . الا ان المسلم واليهودي لا يجد في تلكم النسخة راحة وتعزية تزيدان عما في «نسختي» دينهما . لقد أصيب المجاهد الصليبي بدهشة عظيمة عندما وجد المسلم متدينا ورعا مثله تماما ، بل اكثر منه مدنية وتهديبا مما كان يظن . هذا وليس لدى المسيحي اللاتيني ما يقدمه للمسيحي الارثوذكسي ، مما لم يسبق للمسيحية الارثوذكسية ان زودته به ، فكلاهما بالاصل «خلاصيان» .

الا دعنا نتعقب هذا الدين ، دين «الخلاص» او «الفداء» منذ البداية . هنالك اشياء كثيرة جدا تحصل دائما مما لا يرغب فيه المرء الا اذا استحدثته هو بنفسه ، ومع ذلك فالموت والطواعين والعواصف ، والآفات الطبيعية ، والفيضانات ، وشروق الشمس وغروبها والنمو ، والحصاد ، والتحلل ومعجزة السماء المطرزة بالنجوم فوقنا ، وقانون (كانت) (1) الخلق في باطننا . هذا كله

١ - Immanuel Kant (١٧٢٤ - ١٨٠٤) فيلسوف مثالي الماني مؤلف «نقد العقل الخالص» . و«القانون» الذي يشر اليه شو هو محاولة (كانت) ان يتبين ان في طبيعة العقل الفردي ما يمكنه من الوصول الى بعض المعرفة دون اعتماده على ما تأتي به الحواس من العالم الخارجي اي ان تلك المعرفة لا تأتي من التجارب وانما هي كائنة في العقل ، وان الانسان لا يدرك ماهية الاشياء وجواهرها وانما يدرك ظواهرها الحسية في زمان ومكان مخصوصين . وقال في «نقد المفصل العملي» ان الدين لا يمكن ان يخضع لاسس علمية ومقلية ، وانه يرتكز على دعامة من الاخلاق .

يحملنا على الاستنتاج بأن «أحدا» ما يتولاها جميعا ، أو ان احدا ما يقوم بعمل الخير ، وآخر بعمل الشر ، أو ان جيوشا من اناس غير مرثيين من الاشرار والاخيار ، تتولى عملها . ومن نم وجب عليك ان تفترض كينونة لما يطلق عليه «آلهة» و«ملائكة» و«جنّا»، وانك لتعمد الى استرضاء هذه «القوى» بالهدايا واستمالتها بالتقدمات والقرايين ، ومجاملتها بالملق والمداهنة وتقليدها آيات الحمد والثناء ، ثم ان قانون «كانت» الخلقى في اعماقك يدعوك الى تفهم إلهك بوصفك قاضيا عادلا ، وتحاول ايضا رشوتسه وافساده بالهدايا والمداهنة . ان هذا يبدو لنا امرا شنيعا ، غير ان احتجاجنا عليه هو ظاهرة حديثة جدا . ففى عصر لا يبعد عن عصر شكسبير كان من الامور الطبيعية جدا ان يقدم الخصوم المتداعون هدايا للقضاة الذين ينظرون في دعاواهم وهم من البشر طبعاً ! في حين ان ادراء السخط الالهى بدفع المال النقدي للكهنة او للكنيسة «المستصلحة» (١) التى تدعى مفاومتها هذا التصرف بمشاركتها في اعمال الصدقات وتوزيع الخيرات وبناء بيوت الله وما اشبهه - ما زال يجري ويقوم على قدم وساق . ومضارها العملية هي انها تحول تماما بين الفقراء وبين كل امل لهم فسي البركة الالهية ، وتسهل الامور كثيرا للاغنياء . وهذا ما يعجل بالانتقاد الاخلاقى انتقادا بلغ بالفقراء حدا انهم سرعان ما وجدوا القانون الخلقى فيهم يثور على فكرة رشوة الآلهة بالذهب والعطايا وان ظلوا على اتم استعداد لرشوته بنقود المدح والثناء الورقية! (٢)

١ - اعنى الفرق والطوائف والمذاهب التى قبلت بالاصلاح الدينى بدرجات متفاوتة .

٢ - لى هذا القول نكتة لازمة من تلك التى اشتهرت بها كتابات شو ، فهو يعتبر النقود الورقية رخيصة بحسب قيمتها الحقيقية لا الاسمية ويشبه رخص المديح والثناء الفارغ برخصها .

وباحتراف عمل الندامة! وعلى هذا الأساس ستجد ان الدين يمكن ان يظل قرونا عدة في المجتمعات البدائية كما هو دون ان يعثره تغيير ، حيث ظروف الحياة لا تترك مجالا لسيادة الفنئ او الفقر، وحيث عملية تقديم الكفارة للقوى الفائقة للطبيعة هي ضمن قابليات اقل القرويين شأننا مثلما هي ضمن قابلية رئيس القرية . لكن ، ما ان تقبل المدنية التجارية ، وما ان تقوم «الرأسمالية» بتقسيم الناس الى قلة من الاغنياء وكثرة من الفقراء المعدمين الذين لا يعيشون الا بشق الانفس ، حتى تنجم حركة اصلاح ديني بين الفقراء ، ستكون هذه الحركة بجوهرها حركة تهدف «خلاصا رخيصا» او مجانيا ! تماما . ولكي نفهم ماذا يقصد الفقراء بالفداء ، علينا ان نشرح بايجاز ما هو المقصود بالعدالة ؟

الفرق بين العقاب وبين الكفارة

ان فكرة العدالة البدائية بأبسط احوالها من وجهة مشروعية الانتقام ومن وجهة التفكير بموضوع التضحية ، انما تتبع بكتلتها وصفها هذين من قاعدة : «اسودان يُخرجان ابيض واحدا !» ومن قاعدة «اذا وقع اذى ، فيجب ان يدفع ثمنه اذى مقابلا» . ويبدو من الطبيعي المقبول عند افلبية الفلستيين النفعيين ان التعويض عن هذا الاذى يجب ان يقع على كاهل الجاني لما لذلك من التأثير الكابح الرادع لغيره ، ولكل من قد تسول له نفسه ارتكاب المعاصي . ان لحظة قصيرة واحدة من التأمل تظهر لنا بأن هذا «التطبيق الفلستي» يفسد الامر كله . فمثلا سفك دم البريء لا يمكن ان يوازن بسفك دم العاصي . والتضحية بمجرم ابتغاء مرضاة الله بسبب قتله احد عباده البررة ، يشبه تضحيتك بشاة جرباء ، او بشور مصاب بطاعون الماشية (داء ابي هلدان) . ومن

شأن مثل هذه التضحية اثاره السخط الإلهي بدل تهدئته. ويعملنا هذا نتقدم الى الله على شكل قربان ، ترضية لحقدنا ، وشفاء لعله انتقادنا ، بعملية تتضمن حماية ارواحنا بالسذات ، من دون ان يكلفنا ذلك اية خسارة . والكلفة هي جوهر التضحية او الكفارة . ومهما بلغ نجاح النفعيين في ارباك هذه المسائل عند تطبيقهم اياها وممارستهم لها ، فهي في مفهوم (الخلاصيين) مختلفة لا بل متضادة . عندما قالت بنت اخ البارون في رواية (ديكنز) (1) وقد اربكها فشل الشرطة في العثور على قاتل محامي عمها : « الاوفق كثيرا ان يشنق احد بالوهم من ان لا يشنق احد !» ولم يكن اصرارها هذا مجرد شعور عام كثير الشيوخ في النفوس ، وانما كانت في الواقع تقف متأرجحة عند حافة الرأي الخلاصي الاقل شيوعا والنادر وجودا ومنطوقة : «من الخير كثيرا شنق شخص بالوهم» وهذا يعني في واقع الحال ان الشخص المتوهم به هو اصلح الناس للشنق . والنقطة هي نقطة جوهرية لان المسيحية التاريخية (2) ستبقى غامضة على انها منا حتى ندرسها دراسة استيعاب . زد على هذا ان اولئك الذين لا يهتمون قلامة ظفر

1 - ان (بنت اخ البارون) المقصودة هي المدعوة «فولينا ديدلوك» بنت اخ سر ليشتر ديدلوك في رواية شارلس ديكنز المسماة «البيت الكئيب» **Bleak House** (ألفها في 1852) . تذكر فولينا هذه في الفصل الثالث والحمسين من الرواية القول الذي اقتبسه شو هنا .

2 - يقصد مسيحية الاناجيل الاربعة التي تفصح عنها تعاليم المسيح والنبوءات التي عزيت في أسفار التوراة وفسرت طبقا لها . وهنا يفصح شو بصورة غير مباشرة من رايه الذي ستحده مفعلا فيما بعد - حول ان المسيحية التي جاء بها الرسل ووصلتنا تختلف وأحيانا تتناقض مع (المسيحية التاريخية) مسيحية الاناجيل .

بالمسيحية التاريخية ، قد يطلقون سيقانهم للريح واكضين ليقعوا في خطأ افتراضهم بأننا ان اطرحنا «الثأر» جانبا وعاملنا القتل كما عامل الله قايين تماما (اعني الاعفاء من العقاب ، ووضع وسم عليهم يدل على انهم لا يستأهلون ان يضحى بهم ، وتركهم يواجهون العالم بهذا الوسم) فلنستخلص من العقوبة ومن القربان معا ، وبمعكس ما نظن ، فهذا لا يستتبع حتما شعورنا بأن (كفارة القتل) قد تؤدي على اغلب الاحتمال الى تسليم شخص ما بريء (كلما كان اكثر براءة كلما كان افضل) الى قنلة شنعاء لموازنة الحساب مع العدالة الالهية .

الخلاص اولا امتياز طبقي ؛ وعلاجه

سنظل نشعر بأننا خلاصيون من دون حاجة تلجئنا السى تضحية والى ضحية ، حتى وان يقرر الفقراء ان طريقة «الخلاص» بتقديم خراف وجداء او ذهب الى المديح ، يجب اعتباره عملا خاطئا لان حالتهم المالية لا تعينهم على ذلك . او انه من العبث محاولتنا الاستعاضة عن تلكم الهبات بالطقوس الصوفية التي لا تكلف مالا ، ولا تحمل عبئا ، مثل الختان ، او مثل المعمودية كبديل عن الختان وسيظل شعور بالعدالة فينسا يتطلب «كفارة» او «تضحية» او ايجاد من يكابد عنا او يعاني بسبب آثامنا التي اجترحناها . ان هذا يترك الفقير المعدم في ورطته الاولى . اذ كم سيتعذر عليه ان يجد جارا له يحمل عنه وزره ، ويكابد عنه الآمه بمحض اختياره (وهو الذي عجز عن تأمين تقديم الخراف والجداء وشواقل الذهب) جار يقول له بكل محبة وطيبة خاطر « لقد ارتكبت جريمة قتل فلا بأس عليك يا صاح ولا تخش شيئا لانني مستعد لا قدم عنقي يدل عنقك المشنقة تكفيرا عن جريمتك !»

وهنا يجب أن يسرع «يسوع خيالنا» الى نجدتنا . فبدلاً من الاستسلام الى القنوط في اصرارنا عبثاً على كفارة منفصلة بفدية منفصلة لكل اثم او جريمة ، لم لا يكون عندنا كفارة عظيمة واحدة بفدية عظيمة واحدة ، حتى تتم تسوية الحساب عن كل ذنوب العالم صفقة واحدة ؟ ليس ثم اسهل من هذا ، او أرخص . ف «النير سهل» و«الحمل خفيف» (١) وكل ما ينبغي لك عمله هو ان تجد الفدية ، او ان تؤمن — بعد ان يخرعها لك خيالك بان الصفقة المعقودة ، هي صفقة معقولة لا غبار عليها ، وانك ستؤمن «خلاصك» ولا تعود الخراف والجداء تسيل لها دماء ، وستنقض ابنية الهياكل التي تتطلب الهدايا الثمينة والاضاحي المتواصلة المتجددة . وستقوم اذ ذاك بيعة «الفادي الاوحسد» مشمخرة ، وتثبت اصول «الكفارة الواحدة» على انقاض المعابد القديمة وتغدو فهي بيعة المسيح الواحدة التي لا شريك لها .

الكفارة الرجعية (٢) وانتظار الفادي

على ان هذا كله لا يتم فوراً . فبين «دين الاغنياء» الثالث الكثير التكاليف ، وبين دين الفقراء الطارف المجاني توجد فترة

١ — اشارة الى الايات الواردة في الانجيل : في ف ١١ من انجيل متى : «تعالوا اليّ ايها المرهقون والمثقلون جميعاً فاني اريحكم . احمّلوا نيري وتعلمدوا لي . انا الوديع المتواضع القلب ، تجدوا الراحة في نفوسكم ، لان نيري لطيف وحلي خفيف» (والنير هو ما يجعل في ثنق الثور عند الحراثة) وهو هنا مجاز ومعناه وصايا المسيح وتعاليمه .

٢ — اي الكفارة ذات الانتر الرجسي .

«خلو الكرسي» ! لا تجد خلالها اثرا «للفادي» المنشود واذا ما كان الخيال قد توصل اليه، فذلك لان مجيئه متوقع تحت اسم (يوع) او (المسيح) او (بالدور الجميل) (١) او ما شئت من اسماء مماثلة . وربما انه لم يجرى بعد فلا داعي للخطاة ان يقنطوا ويستسلموا للياس . الحق يقال انهم لا يستطيعون القول ، كما نقول نحن «جاء المسيح واقتدانا» الا ان يوسعهم القول : «سيأتي المسيح حتما ويفتدينا» ذلك لان «الكفارة» ذات اثر رجعي ، وسيكون ذلك جزاء على اية حال . هناك فترات تمر بالشعوب والامم تراها تفور وتغلي غليانا بالترقب والتشويق فتصرخ عاليا بنسوة « قدوم الفادي» على السنة شعرائها وملهميها ولاجل ان نشعر بجو مماثل، ما علينا الا ان نتناول التوراة ونقرأ نبوءة «اشعيا» (٢) بوصفها نهاية لفترة فائرة كالفترة التي تحدثنا عنها . ثم نعود لنقرأ «لوقا ويوحنا» بوصفها نهاية لفترة اخرى .

تمام المشروع على يد لوثر وكالفن (٣)

انا لنرى ديننا يتطور تطورا طريفا ، الا انه تطور غير مفهوم .

١ - Baldur the Beautiful هو ابن اودين Odèn اله الشمس في

الاساطير الاسكندنافية .

٢ - اشعيا هو احد كتاب التوراة (العهد القديم) ويعرف سفره (بنبوءة اشعيا)

كتب في القرن الثامن ق.م ويعد احد كبار انبياء اسرائيل الاربعة . امتازت نبؤته بشدتها وقوة شامريتها . وقد ذكر (ملائكة) المسيحية انه تبا بولادة المسيح يسوع من العذراء مريم .

٣ - ان مارتن لوثر الالمانى Martin Luther ١٤٨٣ - ١٥٤٦ الالمانى

زعيم الاصلاح الدينى البروتستانتي هو اشهر من ان يعرف . وكذلك جوهان كالفن

Johannes Calvin ١٥٠٦ - ١٥٦٤ فهو لاهوتي ومصلح ديني سويسري -

نراه ينقلب من محاولات سخيفة بدائية ساذجة لاسترضاء قوى الطبيعة المدمرة ، الى فقه (لاهوت) واسع الحيلة تحفّ به شعائر كثيرة التكاليف من التضحية ، يقدر عليها الاغنياء فحسب بوصفها نوعا من انواع الترف ليتحول اخيرا الى دين لوثر وكالفن . ولا سبيل لنا الى الانكار بأن الانماط الاولى منه كانت تتضمن تضحيات حقيقية تماما . فلم تكن الاضاحي والقرايين دائما اضاحي رعوية كهنوتية ، كما لم تكن كذلك عموما . في الهند يعرض الرجال جلودهم للضرب طوعا ، فيعذبو انفسهم تعذيبا مروعا ليبلغوا درجة العداسة . وفي بلاد الغرب كان القديسون يدهلون النار ، بصرامتهم وأخذ انفسهم بالشدة في جلد أجسامهم بالسياط : واعتراقاتهم وسهرهم المتواصل . الا ان لوثر انقذنا من هذا كله . فاصلاحاته كانت انتصارا للخيال وانتصارا لرخص الاسعار ! لانه جاءك «بخلاص» كامل ولم يتطلب ثمنا له منك غير الايمان . اذا حللنا عمل لوثر التحليل العلمي الاجتماعي الذي نعرفه فسنجد انه لم يكن يعلم ماذا يفعل ! على ان تميزته خدمته اكثر مما تستطيع المعرفة خدمته . والفريزة بالاحرى ، لا القوى اللاهوتية هي التي جعلته يتمسك بعزم شديد - بالمسوغ عن طريق الايمان . فالايمان عنده هو الورقة الرابحة التي غلب بها البابا ، او كما وضعها هو بالصيغة : «العلامة التي يجب ان تتم بها الغلبة» . قد يمكن القول انه الفى «رسم الدخولية» الى السماء (1) . على

فرنسي . كانت صرامته الدينية وأخذ أتباعه بالشدة سببا ادى لوصف الكالفينية بـ «الايمان الخالي من اية مسرة» .

١ - كان المبدأ (احتجاج) لوثر على ما يدعى «بصكوك الفران» وهي براءات كان قد اصدرها البابا تضمنت ان يتنازع منها ، غفرانا للدنوبه وصعودا مباشرا الى الجنة . وهذا ما يقصده شو بقوله «رسم الدخولية» .

ان مار بولس الرسول نادى بهذا في الواقع ، لكن لوثر وكالفن
حققاه .

« جون بارلي كورن » (١)

على ان هناك «صفحة» اخرى في تاريخ الدين يجب ان تدرس
وتهضم قبل ان تفهم سيرة حياة يسوع فهما تماما . والناس
الذين يملكون جلدا وصبرا على قراءة الكتب الضخمة يجدون هذه
«الصفحة» في كتاب «فريزر» الموسوم (بالغصن الذهبي) .
والناس الاكثر من هؤلاء سداجة يجدونها في اغنية (جون بارلي
كورن) الريفية التي غشيت اليوم غرف استقبال هواتنا ، ضمن
مجموعة من اغاني سومرست شاير الشعبية لمؤلفها مستر سييل
شارب . سنتعلم من مؤلف فريزر العظيم ، كيف ان المنطق
البدائي نفسه هو الذي يجعل الانكليزي يؤمن اليوم بأن اكله
البفتيك (٢) يكسبه قوة الثور وشجاعته ! وكيف يواجه هذا
الزعم اخزي الهزائم امام المصارعين والعدائين وراكبي الدراجات
النباتيين الذين لا يدوقون لحما . وهو المنطق الذي كان يقسود
ويهدى اكثرية من ادرك الله بوصفه قابلا للتجسد ، وجعلهم

١ - «جون بارليكورن» عنوان قصيدة فولكلورية بهذا الاسم وهي مأخوذة
من بارلي : شعير ، وكورن وهي حبة او قمحة . والتعبير باجمعه يعني بالكلام
الداويج «الويسكي» لانه يستقطر من الشعير . وشو يشير الى عملية التحول
هذه بصورة خاصة في عبارته التالية .

٢ - علينا ان ننوه هنا بأن شو نباتي لا يأكل اللحم ، فهو لهذا السبب
معرض تجاه البفتيك !

يعتقدون بأن في امكانهم اقتباس شرارة من ألوهيته باكل لحمه وشرب دمه . ومن اغنية (جون بارلي كورن) تعلم كيف ان معجزة «البدرة والنمو والحصاد» ما زالت أروع كل المعجزات ، وما زالت حتى الآن أعصى على التفسير والفهم كما كانت . ان هذه المعجزة علّمت الفلاح الساذج - وعلينا ان نؤكد هذا - بأن الله موجود في البدرة ، وانه خالد لا يموت . فاصبح من مقتضى الربوبية والحالة هذه - انك لا تستطيع قتلها مهما حاولت . عندما تطمر بدرة الربوبية هذه ، ستبعث ثانية ، بحياة وجمال متجددين مانحة البشرية حياة خالدة سرمدية شريطة ان تؤكل وتشرب ثم تدبج وتدفن لتبعث حية مرة بعد أخرى الى ما لا نهاية . ولك ، بل عليك في الواقع ان تستخدم ما اطلق عليه جون بارلي كورن «البربرية الصحيحة» right barbarouslee (1) وان «تقطع من عند الركبة بمناجلك وتجلده بسياطك وتدفنه في التراب» فلا يبدي مقاومة ولا عتابا . بل سيبعث حيا بجمال ذهبي ، وسط دفقات عظيمة من اشعة الشمس وتفريد العنادل فيخلصك ويجدد لك حياتك . ومن جدل هاتين الاسطورتين معا ومزجهما باللهفة لمجيئه ، سيكون خالدا مؤبدا وسيقدم لنا جسده لناكله ودمه لشربه ، وسيثبت ألوهيته باحتمال ميتة مروعة بربرية دون ان يتمرد أو يقاوم . ليقوم بعدها من بين الاموات ويعود الى العالم ممجدا ، باعتباره مانحا الحياة الأبدية .

١ - مثل هذا المصطلح لا تجده في المعاجم الانكليزية فهو من عمل ونحت صاحبه ، اتخذه للتعبير عن فكرة تجديد نمو البدرة . كما يتضح المقصود من العبارة التي تلت التعبير . فالقمح عند تكامل نمو السنبله يقطع من عند الركبة ثم يدرس ويدق ليخرج منها الحب الذي يزرع وتهال عليه التربة ويدفن لينمو مرة اخرى .

ارتقَاب نهاية العالم

على ان ثمة اعتقادا ثابتا يضايق افكار المتدينين ويشد عليها خناقا منذ ان اثبت الدين بين الفقراء او بالاحرى منذ ان انتجت المدنية التجارية طبقة من المعدمين المحرومة حرمانا تاما من متع الحياة . ومجمل هذا الاعتقاد ان نهاية العالم قد اقتربت وباتت فهي على قاب قوسين او ادنى منا . وان العالم لن يلبث ان يفنى ويعقبه قورا مملكة السعادة والعدل والرغد التي لن يكون للاغنياء فيها نصيب ولا للظالمين والمضطهدين . هذه الامنية نعرفها جميعا وهي من الاماني المألوفة . لا يعدم اكثرنا ان يجد قريبا له تقيا ورعا يرى في كل تكبة عظيمة اشارة الى نهاية العالم الوشيكة . والايدي تتداول في هذه الايام وبصورة مستمرة ، كراريس تنذر بهذا النبا ، بل انك لو اجد اعلانات بهذا المنحى - ينشرها فسي الصحف ويدفع اجر نشرها اولئك المؤمنون ، المروءون بلا ابالية اللادينيين ، هذه الاعلانات كلها تتحدث عن حتمية المصير ودنوه . والواعظون بالقيامه والبعث اليوم هم هم كما كانوا ايام يوحنا المعمدان ينذر ان يكفوا عن انذار رعيتهم بان «يرتقبوا او يصلوا» حيث ان «اليوم الاعظم» يسترق اليهم الخطى مثل لص الليل ، في دنيا ملئت بالخباثت والشرور ، وانه لا يمكن ان يتأخر طويلا . هذا الاعتقاد يتفق مع الرأي (البارلي - كورني) القائل بالمجسيء الثاني . وهكذا ترى الحادئين يتضحان اخيرا . وتسم الجانب الآخر المصطنع اكثر من سواه من هذا الاعتقاد وفيه يتجسس الخوف المتأصل . ان الحاكم الذي يلجأ الى ترويح فكرة المصحح السماوي والامل بالراحة الابدية لتعزية المعدمين والابتعاد بهم عن فكرة الثورة والانتفاض ، يستأصل ايضا الاشرار ، ويقطع دابرهم بتهديدهم بنار جهنم . واننا لنجد (محمدا بن عبد الله) فسي القرآن يميل اكثر فاكثر الى هذه الطريقة من الحكم . وقد ايدت

التجربة اعتقاده الواضح بأن الحكم مستحيل بغير هذا ، وفي درجات معينة من المدنية . وسنرى فيما يلي ان الخضوع لهذه العقيدة يؤدي الى ميل شديد للايمان «بالفادي» ما دامت تضيف الى تائب الضمير (قلما يشعر بوطأته غلاظ القلوب) خوفا اكيدا من العذاب الابدي الهائل الذي لا يمكن وصفه .

شرف الابوه الالهية

هنالك تقليد اسطوري يجب علينا ملاحظته واعطاؤه حقه من التأمل : وهو ان من كمال المديح لملك من الملوك، قولك بانه لم يولد من انسان بل من إله . والحكاية كما وردت عادة واحدة تقريبا: تذهب ام هذا الملك الى معبد ابولو فيأتيها ابولو هذا بهيئة افعى او ما اشبه . ولقد اتخذ اباطرة الرومان لقب الالهية ونسبوا انفسهم الى سلالتها متأثرين خطى اوغسطس . وانك لتجد هؤلاء «الملوك الالهة» يصرون اصرارا (منطقيا) شديدا على ان اسلافهم هم ايضا وفي الوقت نفسه من «الملوك البشر» ! فالاسكندر المقدوني الذي يدعي انه ابن لابولو يصر كذلك على انه ابن لفيليب . واما موقف الاناجيل من ذلك ، فمتى ولوقا (1) الرسولان يثبتان كل في انجيله شجرتي نسب متناقضتين للاستدلال على انتساب يسوع من جهة يوسف ابيه الى بيت داود الملكي . ومع هذا يقولان

1 - كتب لوقا انجيله في رومية للمسيحيين اليونانيين او الرومانيين ، ذكر اقدمهم في مقدمته وهو ثاوفيلس الذي اهدى اليه الكتاب كما جرت عادة كتاب الاقدمين واخذ الشيء الكثير من اخبار يسوع عن انجيل مرقس . اما الاخبار والاقوال التي انفرد بها فقد اخذها من افواه من سمعوا يسوع . وكان لوقا يونانيا .

ان اباہ لم یکن یوسف بل الروح القدس وهذا اقحام متاخر
اقتبس من التقليد التاريخي الامبراطوري (اليوناني ثم الروماني).
الا ان التجربة برهنت على ان الايمان بنزول المسيح من صلب
داود ، وبانه حبل به من الروح القدس في آن واحد ، هو ايمان
ممكن . ومثل هذا الايمان المزدوج تتقبله الازهان البشرية من دون
قلق او شكوك بسبب ما يتضمن من تناقض . وفي امكاننا ايراد
عدة امثلة لذلك . منها قضية معروفة للجيل الذي انا منه ، هي
قضية «الدعي تجبورن» الذي لقيت محاولته في انتحال
البارونية (1) مساندة من احدى نقابات العمال ، على اساس كون
افراد أسرة «تجبورن» الحقيقيين يرمون الى تجريد عامل مسن
حقوقه بمقاومتهم محاولة الانتحال تلك ! ومن المحتمل جدا ان
القديسين متى ولوقا كانا غافلين عن التناقض الذي وقعا فيه .
والواقع ان الصعوبة والاشكال لا يرتفعان بنظرية «الاقحام» . اذ
لا شك ان القائمين بهذه العملية هم انفسهم لا يدرون بها . وثم
سبب آخر اقوى من هذا السبب للشك بحصول «الاقحام» ، وهو
ان بولس الرسول لم يعرف شيئا عن الولادة الالهية ، بل كان جل
ما يعلم ان يسوع جاء الى هذا العالم باعتباره ابنا ليوسف
النجار . الا انه قام من بين الاموات بعد ثلاثة ايام من وفاته
باعتباره ابنا لله . وقليل من الناس هنا ايضا من يلاحظ هذا
التناقض ، والعقل المشقف يقبل وجهات النظر الثلاث في آن
واحد دون حيرة او ارتباك . ذلك لان في مقدورنا ان نعتنق نصف
دزينة من الروايات المتناقضة لحادثة ، اذا كنا نشعر نحوها بأحد
شعورين : اما انها لا تهم كثيرا واما ان هناك حلا وسطا يمكن
التوصل اليه للتوفيق بين هذه الروايات المتناقضة . الا ان

التناقض ليس بالقضية التي تشغل بالنا الآن . وكل ما ينبغي ان يلاحظ الآن هو انه لم يكن ثم مندوحة من ربط الاسطورة المتعلقة بالولادة الالهية عاجلا ام آجلا بالشخصيات البارزة جدا في عهد الامبراطورية الرومانية . وان اللاهوتيين المعاصرين لا يكذبونها ، بالعكس فانهم يؤكدون الحبل العجائبي بكل ما وسعهم من منطق لا بالنسبة الى يسوع وحده بل بالنسبة لامه ايضا .



بافتقارنا هنا الى مواد بحث ووسائل تقصّ اكثر من عادة التخيل البشري لا مانع ان يقرأ كل امرئ الاناجيل الاربعة على ان لا ترافق قراءاته الدهشة والارتباب الساخر اللذان يتلفان مزاج كثير من ملحدي عصرنا . وان لا يلازمها ذلك الايمان السخيف الذي يحمل الاتقياء والورعين احيانا على ارغامنا كارهين على كلهم ودفعم منا جانبا في وقت الضرورة وحين تحتم علينا الظروف ذلك بوصفهم من طبقة المجدولين اللاواقعيين ، حين يطلبون منا مواجهة العنف والظلم بالخنوع الابكس الصامت ، اعتقادا منهم بان سلوك يسوع امام بيلاطس كان يقصد به ضرب مثل للسلوك الاعتيادي الذي يجب ان يتخذه البشر . الا دعنا نسلم بان الاناجيل مجردة عن الدلائل السديدة المقنعة ، ان هي الا هراء لا يصدقها المثقف العصري . وان قصص الرسل (1) لا

١ - قصص الرسل او اعمال الرسل وهو احد اسفار العهد الجديد . الفقه لوقا الانجيلي بعد السنة ٦٤ وقبل السنة ٧٠ م كما تقدم في موضوع انجيله . ويتضمن هذا السفر الكبير قصة انتشار الدين المسيحي في المعمورة وحياسة الرسل وتعاملهم مع الناس ورحلاتهم وموقف السلطات منهم الخ ... يتضمن ايضا الرسائل التي كان يعث بها بولس الرسول الى المؤمنين والتلاميذ ولى اغلبها قواعد ومبادئ اصبحت جزءا من العقائد المسيحية الحالية .

يمكن ان تقرا البتة ، الا ان قراءتها بوجود ادلة قد تكون ممكنة الى حد ما . وهنا يبدو لك يسوع شخصا جامدا غير مفهوم . كذلك تغدو الاسباب التي دفعته الى التقدم «كالخروف المقاد للدبح» بدلا من انقاذ نفسه كما فعل محمد بن عبد الله اسبابا واضحة تماما . وتبدو لك الحكاية موثوقة كآية حكاية تاريخية اخرى معاصرة لها .

الفصل الثاني

متى

البشارة - المنبحة - الفرار

الا فلنبدا بانجيل متى ، وليكن معلوما لدينا ان صاحب هذا الانجيل لا يدعي بان ما كتبه هو تقرير لشاهد عيان ، بل هو تاريخ كالتواريخ الاخرى بني على شواهد ومعلومات مما يكون عادة في متناول المؤرخ . ان من يدعي من الانجيليين ، بأنه وحده صاحب اولى الشواهد لكونه الشاهد العيان ، لا بد يحرص بنوع خاص على ابراز ذلك ونشره بين الملا ، وبما ان متى لم يزعم لانجيله هذا الزعم وانما يعترف بأنه كتب كتابة مؤرخ بحث من الالف السى الياء ، موضحا بأنه يقص قصة يسوع مثلما قص هوليشيد قصة ماكبث خلا ان منته لسبب سيدكر من بعد - جمع مادته واكمل سيره في حياة اشخاص ثبت ثبوتنا قاطعا انهم عاصروا يسوع . وعينا ان ناخذ في نظر الاعتبار ايضا انه كتب سيره باللفسة اليونانية في حين ان الروايات الاولى عن يسوع ، والاقوال المعزوة

اليه فعلا ، كانت بلا شك باللغة الآرامية لغة فلسطين الدارجة في زمانه . هذه المميزات مهمة كما ستجد ذلك ، عندما تقرأ هولنشييد او فرواسار ثم تقرأ بعدهما بنفوتوشليني (١) . انك لا تنحي على هولنشييد وفرواسار باللائمة لايمانها بالاشياء التي قرآها او سمعها وترديدها لها وان كنت لا تستطيع دائما تصديق هذه الامور انت نفسك . لكن عندما يحدثك شليني بأنه رأى هذا او فعل ذلك ، فستجد من المتعذر عليك ان لا تنسى بأن متى هو هولنشييد وليس بنفوتوتو والصفحات الاولى بالذات من قصته ، ستضع سلوكك تجاهها على المحك .

يخبرنا متى بأن ام يسوع خطبت لرجل ينحدر من نسل الملوك اسمه يوسف وانه كان في سعة من عيش تسمح له بالسكنى في منزل بيت لحم ، كيلا يستغرب من «الملوك» تقديم هدايا له من ذهب دون ان يثير عملهم هذا اي تساؤل (٢) يحدثنا ان ملاكا أعلن ليوسف بأن يسوع هو في الواقع ابن الروح القدس . فيتحتّم عليه والحالة هذه ان يمسك عن اتهام الأم بالزنا بسبب حملها جنينا ليس هو ابا له . الا ان هذه الرواية تختفي ولا يبين لها

١ - يشر شو هنا الى الفرق بين «مؤرخين» امترجت كتاباتهم بالاساطير مثل هولنشييد (ت ١٥٨٠) وفرواسار (ت ١٤١٠) ، وبين شاهد ميان يخط مذكراته كشليني ت ١٥٧١ (ت ١٥٧١) .

٢ - يشر شو الى ما جاء في متى ف:٢ كان المجوس الذين اعتبرهم شسو ملوكا اناسا يرقبون النجوم وقد قدموا «الى اورشليم من المشرق، وقالوا ابن الملك الذي ولد لليهود ؟ فقد برأينا نجمة طالما فجننا لنسجد له» . . . «واذا النجم الذي راوه طالما يتقدمهم حتى بلغ المكان الذي فيه الطفل فوقف فوقه . فلما ابصروا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا ودخلوا البيت فرأوا فيه الطفل وامه مريم ، فجنوا له ساجدين ثم فتحوا حقائبهم وأعدوا اليه ذهباً وبخوراً ومرّاً» .

اثر في الوقائع التالية ، ولا تجد ثم ذكرا او اشارة لوصول اية معلومات له بخصوصها . والواقع ان السرد يستمر بصورة عامة وكأن هذه «البشارة» ليست جزء منها !

ولا اعتقاد هيروُدس التّيرارك ان طفلا مولودا سيقدّر له ان يحوز سلطانا يمكنه من القضاء عليه ، يصدر امرا بقتل كسل الاطفال الذكور ، الا ان يسوع ينجو من المذبحة بفرار ابويه به الى مصر وعودتهما بعد زوال الخطر الى مسقط رأسهما الناصرة . وهنا علينا الاستنظار قليلا لنقول : ليس بين الانجيليين من يقبل بهذه القضية ، كما انه لا يقبل احد منهم بيوحنا الذي يرفض كل ما جاء في انجيل متى برمته ويقاسمه الشذوذ في تناول التاريخ وكتابة السيرة بوصفهما مجرد وقائع حقت نبوءات يهودية غابرة . هذا الخيال ادى به بلا ريب الى البحث عن اسطورة ما لتحقيق نبوءة هوشع : «من ارض مصر دعوت ابني» ، ونبوءة ارميا (1) عن راحيل «التي تبكي اولادها» وهو في الواقع يؤيد هذا وكل ما يدور حول معقولية قتل الاطفال الابرياء ، والفرار الى مصر وهو مما لا يجتذب اهتمامنا اليوم . وبامكاننا نسيان الموضوع والالتفات الى الجزء المهم من الحكاية التي تففز رأسا الى عهد رجولة يسوع .

1 - ارميا (ارميا) ابن حلقيا اللاوي ، بث نبؤاته في عهد يوشيا الملك ولستر بعد خراب اورشليم على يد نبوخذنصر البابلي في العام 586 ق.م. دون تلميذه باروخ نبؤاته . ويقلب الباحثون ان باروخ كتب جزءا من سفر ارميا المعروف وان كتابا لاحقين زادوا عليه . ويعتبر هذا النبي من الاربعة الكبار عند اليهود .

وهوشع Hosea هو احد انبياء اليهود الاربعة الكبار الاوائل عاش في حدود القرن الثامن ق.م. كان يحث مواطنيه على ترك عبادة الاصنام الى يهوه وعن العقاب الذي ينتظرهم .

يوحنا العمدان

في هذه الساعمة ، راح نبي (خلاصي) يدعى يوحنا يشير الناس اثاره شديدة باعلانه ان فريضة الختان لا تكفي لتكريس المرء نفسه للرب وانه يعتاض عنها بفريضة (العماد) . ونحن الذين وجدنا ان لا مناص لنا من المعمودية ، ورأينا في الختان عملية غريبة عننا تافهة لا بل مهزلة من المهازل . كان هذا الاثر العظيم للهراطقسمة الممدانية على اليهود ، شيئاً غير مفهوم بالنسبة لنا ، اذ بدأ انا قيام يوحنا بتعميد الناس امراً طبيعياً جداً لا غبار عليه ولا يختلف عن اية عملية يقوم بها راعي كنيسةنا في القرية ، لكن نبد فكرة الختان والاستعاضة عنها بالمعمودية كان في نظر اليهود بمستوى نبد فكرة تحول مادة الخبز ومادة الخمر الى لحم المسيح ودمه اثناء مراسيم «القداس» عند كاثوليك القرن السادس عشر ، كما قضى سوء حظ بولس الرسول ان يكتشف ذلك فيما بعد .

يسوع ينضم الى الممدانيين

دخل يسوع وهو ابن الثلاثين على حد قول لوقا ، حياة عصره الدينية مؤمناً بعقيدة يوحنا العمدان . وابتداً بان طلب من هذا النبي المعمودية كما كان يتقدم قبل اربعين عاماً كل جنتلمان شاب ميسور الحال بطلب «الانضمام الى نحلة الاشتراكيين» وبقدر ما يتعلق الامر بالعقيدة اليهودية السائدة وقتذاك ، كان يسوع بعمله هذا ، كمن أحرق سفنه وقطع من نفسه روتين الثروة والمسال والتمسك بالدين القويم (1) . ثم انه بدأ يعظ بانجيل بشارة يوحنا

1 - اعني انه اتخذ طريقاً لا عودة منها بالافتئات على اعظم مقدسات دينه وشريعته ، شريعة موسى ، فحكم على نفسه بالزيف من العقيدة اليهودية رغم انه كان يبدو مقبلاً عليها .

المعمدان الذي كان يدعو الناس الى التوبة والاستغفار لاثامهم وخطيئاتهم ، لان ملكوت الله قد دنا وهو الآن بمتناول اليد ! فضلا عن دعوته الى زندقته . . . العماد ! تلك الزندقة التي تكمن قيمتها الحقيقية في اجتذاب الوثنيين اي (غير المتخشين) الى حظيرة الخلاص . ويضيف لوقا قائلا انه وعظ ايضا بشيوعية الاحسان والصدقة ، حين نبه العشارين بان لا يشتطوا فسي اعتصارها من المكلفين بها . ونصح الجنود بان يقنعوا بتمريناتهم العسكرية ولا يستخدموا العنف ولا ينهموا الآخرين كذبا وزورا . وليس في الروايات ما يشير الى ان يوحنا المعمدان ذهب السي ابعده من هذا .

يوحنا الهمجي ويسوع الحضري

لم يسع يسوع الا ان يمضي الى ابعده من هذا على ما يذكر متى . ومع انه انقلب واعظا جوا لا مثل يوحنا الا انه نأى كثيرا عن أسلوب عيش زميله هذا . فيوحنا خرج الى البرية القفر ، ولم يفش الكنيسة . وكان جرن عماده نهر الاردن . واخذ بحياة الزهد والتنسك فستر جسده بجلود الحيوانات ، واقتات على الجراد وعسل البرية يعيش عيشة وحشية صارمة . وراح ينشد الشهادة فنالها على يدي هيرودس . على ان يسوع لم يجسد فضيلة ما لا في التقشف ولا في حب الاستشهاد . فهو على الضد من يوحنا حضري من اساسه مهذب الى درجة عالية ؛ ويقول لوقا ان يسوع نفسه اشار الى الفرق بين هاتين الحالتين موبخا اليهود لقولهم ان يوحنا فيه مس من الجن وأن الشيطان قد ركبه لانه نباتي لا يقرب اللحم ولا يشرب الخمر . كما انهم عندما اتجهوا اليه هو ايضا وراحوا يثلبونه وينتقصونه ويعيبون عليه شربسه

الخمير والشراهة ومجالسة (العشارين) والعاشرات ؛ وأنذر يسوع تلاميذه له متزمتين ، بأنهم سيصادفون متاعب كثيرة من الناس ، دون أن يسببوا لغيرهم أية متاعب وأوصاهم أن يجتنبوا الاستشهاد وأن يبتعوا أنفسهم كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وقال لهم «إذا اضطهدوكم في هذه المدينة انقلبوا إلى الأخرى» . وكان يعسظ الناس في الكنيس مثلما يعظهم في الأرض البراح والعَرَصات سواء بسواء ، أيهما صادف ؛ ويردد القول دوما «أني أريد رحمة لا ذبيحة» موضحا أنه يريد بذلك نبرثة نفسه من الوهم المتأصل في النفوس ، وهو نشدان مرضاة الله في مكابدة صنوف العذاب . «لا تكونوا مثل الفريسيين ، لا تسلكوا سلوكهم فإنهم يقولون ولا يفعلون» (١) وهو كذلك طيب المجلس حسن المعشر ، يشارك موظفي الرومان مواعدهم ، ويلام لأنه لا يفسل يديه قبل الطعام ، ويخيب آمال أتباع يوحنا الذين يصومون ويتوقعون أن يجدوا المسيحيين أكثر تقشفا منهم ، عندما يجدونه هو وتلاميذه الاثني عشر غسيرا صيام . فيقول يسوع لهم ، أن عليهم أن يقرحسوا به بدل أن يكتسبوا . وهو مرح هازل إذ تراه يقول لهم أنهم لا يلبثون أن يجدوا صياما كثيرا ينتظرهم جميعا شاؤا ذلك أم أبوا . وهو لا يخشى المرض ، فتراه يواكل الأبرص ، وتتقدم امرأة منه (تريد وقايته من العدوى كما يبدو) فتسكب عطرا غالي الثمن على رأسه ، فيتعرض لانتقاد شديد ، إذ كان الأخرى به أن يوزع ثمن المعطر على الفقراء والمحتاجين . فيسخر من هذه الفكرة المقبضة للنفس ويردد دائما

٢ - متى : ف ١٠ «وإذا لم تقبلوا ولم يسمع كلامكم ، فاخرجوا من ذلك البيت أو تلك المدينة فانضموا إلى الفجار من أقدامكم» . . . «وإذا طاردوكم من مدينة فاهربوا إلى غيرها . وإذا طاردوكم في هذه أيضا فاهربوا إلى بلد آخر . . .» .
 وفي ف ٢٣ : من متى هجاء مقدع بحق الفريسيين والكتبة . فليراجع .

قوله (عندما ينتقد) ان الفقراء هم دائما موجودون جل ان تمد لهم يد المساعدة ، ولكنه لن يكون معهم دائما . ويوصي بقوله «عليكم ان لا تضيعوا فرصة السعادة عندما يوجد هذا القدر العظيم من البؤس في العالم». وهو يكسر عظمة السبت ، ويضيق ذرعاً بائباع الاعراف والتقاليد عندما يكونان مصدرا للضييق والازعاج او عندما يقفان عقبة في سبيله . وهو يثير استنكار اليهود ويطعن مشاعرهم في الخروج عنها ويقدم على اتهام الناس الذين يعيشون في هذا الرياء . وهو كالطبيب الذكر صموئيل بطر ينظر السى المرض بمثابة نوع من الائم فتراه يقول عندما يشفى الاعرج : «مفورة لك خطاياك» ، بدل قوله «انهض وامش !» زاعما من ثم ان مغفرة الخطايا وشفاء الامراض كلاهما شيء واحد . وعندما انتقده الكتبة (١) لادعائه السلطان على هذا ، لم يكن في ادعائه اي تواضع فقد زعم انه اعظم من سليمان ومن يونان (٢) . وعندما

١ - يطلق على اولئك الذين يكتبون او يسجلون اسفار الشريعة واخيرا اطلق على مفسريها وشارحيها . وقد ارتفعت اهمية الكتبة في آخر قرنين قبل الميلاد فاصبحوا معلمي الشريعة ومفسريها واصبحوا خطباء في المجمع وقضاة . وكان ينتخب منهم أعضاء المجلس الديني الاكبر وهو المجلس التشريعي اليهودي . وتحترمهم عامة الناس وتطبق الاحكام القضائية التي يصدرونها . والمعتقد ان المعارضة الشديدة التي لقيها المسيحيون في اوائل عهد المسيحية عند اليهود كان سببها القرارات التي اصدرها هؤلاء بحقهم . كان يسوع يأخذ عليهم بصورة خاصة صرامتهم وتشددهم وتمسكهم باللفظ دون المعنى .

٢ - سليمان الملك والنبي اليهودي (ت ٩٣٣ ق.م.) الذي يعزى اليه سفر «الامثال» و«نشيد الانشاد والجامعة» ، وينفى الباحثون المتأخرون انه كتبها او كتب اكثرها . ويونان النبي هو صاحب قصة الحوت .

انتقد كما انتقد بنيان (1) لاتخاذ الرواية مثابة في تعليمه الامثال والحكم ، برر عمله هذا بالحجة القائلة «ان الفن هو السبيل الوحيدة التي يمكن ان يتعلم بها الناس» . فالمسيح بمختصر القول هو ممن يجب علينا تسميته بالفنان وبالبوهمي في اسلوب حياته .

لم يكن يسوع داعية الى دين

نقطة ذات اهمية كبيرة عملية في يومنا هذا ، وهي ان المسيح كان ينفي بصراحة الفكرة القائلة ان اشكالا من الديانات ، ما ان ترسخ جذورها ، حتى يفتدو من السهل قلعا ورفعها عن تربتها واعادة غرسها مع ازهار ايمان آخر غريب عنها «اذا حاولتم قلع الزوان فستقلعون معه القمح ايضا» على ان مشاريسع بعثات التبشير والهداية عندنا ، تعمل ضد هذه النصيحة تماما . والنتائج تظهر صواب نظريته القائلة بانك اذا هديت شخصا ربي على دين آخر فانك تفسد اخلاقه حتما . وقد عمل يسوع نفسه وفق هذه القاعدة ، فلم يطلب من تلاميذه التحول عن اليهودية الى المسيحية . والى يومنا هذا ، يعتبر المسيحي يهوديا دخل حظيرة (الديانة) بالمعمودية بدلا من الختان ، وقبل بيسوع مسيحا ، واعتبر تعاليمه اوثق واقرب من تعاليم موسى الى الاتباع . على ان الكهنة اليهود الذين عمدوا الى انقاذ الديانة اليهودية من طغيان

John Bunyon — 1
النزعة اشتهر كتابه The Pilgrim's Progress (اصدره: 1678) وهو كتاب ديني رمزي يصف رحلة الانسان الخاطيء الى بر الغفران والظهاره من الذنوب.

المسيحية فعلا بأسفار جديدة وفرائض جديدة ، وأضافوا السي قائمة أسماء الملعونين اسم ايشوع (1) النفل الساحر الذي أدت به اعماله الاحتيالية الهزلية الى نهاية سيئة مثل بنش (2) او تيل يولنشبيفل (3) فكان استنباطا وتخريجا كلفهم ثمنا غاليفا عندما تفوقت عليهم المسيحية سياسيا . واليهودي كما يعرفه يسوع اليهودي لا تخطر بباله مثل هذه الامور وبامكانه ان يصير تابعا له دون ان تخل تبعيته هذه بولائه ليهوديته .

تعاليم يسوع

هذا ما يعن لنا ذكره حول طباعه وحياته الخاصة . على ان حياة الواعظ الجماهيري فيه ، باعدت الثقة كثيرا بينه وبين يوحنا المعمدان . فهو في الواقع لم يول اهتماما خاصا بالمعمودية وبالندور وواصل وعظه وحثه على مكارم الاخلاق دونما هوادة . فدافع عن الشيعوية ، وحرص على توسيع دائرة الاسرة الخاصة وانفتاحها وتفسيح صلاتها الضيقة الممومة بالتحول الى دائرة الاسرة البشرية العظمى التي تخضع لابوة الله . واوصى بنسب الاحقاد ، وطرح العقاب جانبا وحض على مقابلة الشر بالخير ، بدلا

1 - ويقصد به (المسيح ابن مريم) طبعا فهو يشوع وايشو بالعبرانية والارامية على التوالي .
2 - Punch : بطل المسرحية الشائعة المعروفة باسم (Punch and Judy) .

3 - Til Eulenspiegel شخصية هزلية في سلسلة من الحكايات الالمانية القديمة طبعت في العام 1519 .

من مجازاته بالشر العدواني. ودعا الى المفهوم العضوي الاجتماعي، وهو انك لا تعدّ في مجتمعك فردا مستقلا وانما عضوا فاعلا ، كذلك جارك ، وانتما اعضاء احدكما للآخر كأنكما اصبعان فسي اليد ، والنتيجة البديهية من هذا ، هي انك ان لم تحب جارك كما تحب نفسك وان لم يحبك هو ايضا مثل حبك له فسيلحق بكلاكما الاذى . لقد شرح يسوع كل هذا ببيان ساحر ممتاز ومتسع سامعيه بالامثال الطريفة المقتنة . ولم يكن عنده (كنيست) او (جماعة من المؤمنين خاصة) وانما كان يتنقل من موضع الى آخر مع اثني عشر استدعاهم وانتزعهم من اعمالهم اثناء مروره بهم - فتركوا اشغالهم وتبعوه .

المعجزات

تميز بقوى غير اعتيادية ، استطاع بها عمل المعجزات . وكان يخجل من وجود هذه القوى فيه . ولكن بما انه في منتهى اللطف ورهافة الحس فهو لا يستطيع ان يرفض تجربتها في شفاء المرضى المبتلين عندما يرفعون اليه اكف الضراعة فيشفئهم . ولما يرى الجموع الكثيفة جائعة ولما يخيم الرعب على تلاميذه من جراء هبوب العاصفة في البحيرات لا يسعه الا معالجة الامر بقسواه الخارقة وهو لا يطلب مقابلا وانما يرجو الناس ان لا يذكروا شيئا عن قواه الخارقة هذه او ينشروا خبرها . وثم سببنا واضحان لكرهه اشتهار امره بصنع المعجزات : احدهما نفرة طبيعية تجدها في كل اولئك الذين يملكون مثلما ملك يسوع مع امتلاكهم في الوقت نفسه عملا آخر في الحياة اهم من ممارسة تلك المعجزات ، لئلا ينظر اليهم كما ينظر الى المشعوذين والدجالين بالدرجة الاولى . هذا فضلا عن تضايقه من طلبهم اليه تجربة

هذه القوى ارضاء لحب استطلاع فيهم ليس غير . واما السبب الآخر لهذا الكره فهو ان وجهة نظره في تأثير المعجزات على رسالته هي بالضبط وجهة نظر روسو من بعده . كان يدرك فعلا انه سيفقد ثقتهم ويحول اهتمامهم عن عقيدة كاملة الابعاد ، بخلقه مسالة جديدة غير ذات علاقة فيما بين تلاميذه وبين خصومه .

ربما لم يتدارس قرائي كتاب روسو الموسوم (رسائل كتبت من الجبل) ، وهو الكتاب الذي يمكن اعتباره مرجعا في مسائل المعجزات بوصفها «اوراق اعتماد» لصحة الرسالة الالهية ! يوضح روسو كما تكهن يسوع - ان المعجزات هي العقبة الكاداء الرئيسية التي تحول دون اقتبال الدين المسيحي كدين لان استحالة التصديق بها (لو لم يتعدر تصديقها ما عادت معجزات !) تجعل الناس يشكون في أصل الحكاية وفي صحتها . تحدث المعجزات فعلا ولا يكون في حدوثها ريب ، الا ان الشك يأتي الى موضوع العقيدة المقترنة بها . وفي هذا الصدد يقول روسو : « تخلص من المعجزات ، وسيقع العالم اجمع تحت قدمي يسوع » وهو يشير الى تلك المعجزات التي تتقدم بوصفها دليلا على الالهية فتفشل في اقناع العقول وتجعل من تلك العقيدة مهزلة . وهو يقول بحق : «لا غرابة في ان تجعل الاعرج يمشي بصورة اعتيادية فهناك آلاف من العرج تم لهم الشفاء وراحوا يمشون على اقدامهم دون اية معجزة . لكن جئني برجل ذي ساق واحدة ، واجعل الساق الاخرى تنمو له امام عيني في الحال ، وسأصاب بالدهشة حقا . اما مجرد شفاء اسقام وأوجاع ، كثيرا ما تحقق لها الشفاء من قبل ، فهو مما لا قيمة له مطلقا اذا اعتمد دليلا على شيء آخر غير الرغبة في المعونة او اتخذ برهانا على المقدرة الشفائية» .

وعند متى ان يسوع يتفق تماما مع روسو ، وانه يشعر بالحظ شعورا قويا بحيث انه يشعر بمنتهى القرف والانزعاج عندما يأتيه اناس لا هم مرضى ولا هم في محنة يطلبون منسه

ممارسة قواه الخارقة كدليل على رسالته . فيرفض وهو ساخط
 سخطا قد يعتبرونه غير معقول صدوره منه وهم الذين يجهلون
 وجهة نظر روسو . انها لتجربة مرة لهم ان ينعتهم صانع المعجزات
 «بالجيل الشرير الفاسق» لمجرد طلبهم منه ان يعرض لهم نموذجا
 لقواه الخارقة . والشيء بالشيء يذكر ان النبي محمدا ثارت
 ثائرتة وخرج عن طوره ايضا عندما طلب الناس منه صنع معجزات
 فأنكر صراحة وجود اية قوى خارقة فيه ، بينما يتضح من قصة
 متى ان يسوع كان لسوء حظه كما ظن هذا الانجيلي يتمتع ببعض
 القوى الشفائية . كذلك واضح بأن ممارسة قوى كهذه ستشير
 كثيرا من الاقاويل والحكايات عن مآثر السحر التي ستعرض
 بظلمتها الى الاتهام بوصفه دجالا يمارس شعوذاته بين اناس كسان
 رايهم الطيب ذا اثر عظيم في النشاط الذي بدأ به رسالته . الا
 اشد آثار القلق والحيرة التي تخلفها المعجزات هي انها لا تلائم
 الغرض الجوهرى الذي وجدت لخدمته . فتعاليم يسوع (وهي
 الغرض الجوهرى) لا علاقة لها بالمعجزات . واذا كانت رسالته
 لمجرد اظهاره طريقة جديدة لاعادة البصر الى العين ، فان معجزة
 شفاء الاكمة تكون متفقة مع الغرض تماما . اما قوله «احبوا
 اعداءكم ، ولاقناعكم بذلك فسأبشر الآن بشفاء هذا السيد من
 مرض نزول الماء على عينه» فسيكون اقتراحا جنونيا بالنسبة الى
 رجل ذكي كيسوع ولو امكن اليوم البرهان على انه لم تحصل قط
 اية اعجوبة من اعاجيب يسوع فان هذا البرهان لن يبطل قسولا
 واحدا من اقواله التهذيبية او تعاليمه ، بالعكس من هذا لو امكن
 البرهنة على ان المعجزات المدوثة في الاناجيل ليست وحدها هي
 التي وقعت فعلا وانما هناك الف اخرى منها تفوقها امجازا الف
 مرة فلن يضيف ذلك من الثقل والاهمية الى عقيدته ومع هذا ،
 فان الحيوية الذهنية التي كانت ترى في الملحدن واللاهوتيين قد
 تدهورت على مدى اجيال من النقاش المستمر ول المعجزات

بالافتراض ان المسيحية ستعرض الى خطر ماحق بسبب الجدل حول حكايات متى اهي زائفة ؟ ام حقيقية ؟ ومما يستفاد من متى نفسه ان يسوع كان بلا ريب يعرف ذلك معرفة تامة فاللجاجة والالاحاح كانا يلاحقانه في طلب المعجزات انى توجهه وسار ، وكلما اثار شريعته الحيرة في النفوس .
الا فلنضرب الآن عن المعجزات صفحا . ولنعد بعدها لنجد ان متى يخبرنا بان يسوع صرح ان تعاليمه ستكون هدفا لمهاجمة الدين السائد ونظام الحكم القائم ، وان الجماهير وسواد الشعب هو «ملح الارض» و«نور العالم» وان تلاميذه في علاقاتهم مع المنظمات السياسية والدينية (الكنيسية) سيكونون كالاغنام بين الذئاب (1) .

متى ينسب التعصب ليسوع

ان متى كمعظم كتّاب السير ، يجاهد في جعل آراء بطله وأمزجته ونزعاته نسخة منه متطابقة . ومع انه يصصف يسوع بالتسامح الى درجة اهماله الحذر ، فانه يضع بينه وبين الوثنيين حاجزا ، ويقدمه لقرائه يهوديا متعصبا يرى رسالته مقصورة على «خروف بيت اسرائيل الضال» . وعندما طالبت المرأة الكنعانية من يسوع ان يشفي ابنتها ، رفض ان يكلمها في مبدأ الامر ، ثم زجرها زجرا فيه فظاظة وغلاظة اذ قال لها «لا يحسن ان يؤخذ خبز البنين فيلقى الى جراء الكلاب» فقالت له «رحمك يا سيد» حتى جراء الكلاب تأكل من الفتات الذي يتساقط عن موائد

١ - من ذناب .

اصحابها» فأذابت بقولها هذا قلب اليهودي فيه وجعلت المسيح مسيحيا ، واجابها «ما اعظم ايمانك ايها المرأة فليكن لك مسا ترين» . وهذه القصة على كل ، هي واحدة من اشد القصص وقعا وتأثيرا على النفس في انجيل متى ، وربما كان ذلك متأثرا من ان المرأة وبخت النبي بمسها اروع سجية من سجايها . انها بالتاكيد بعيدة عن طبعه ، غريب صدورها منه . لكن ، لما كانت آثام ارجال الصالحين هي دائما بعيدة عن طباعهم فليس سليما ان نرفض القصة بوصفها منحولة موضوعة دعما لاصرار متشى وتاكيدته بأن يسوع لم يكن له اية علاقة بالمحدثين على اي حال ، فتلك هي القصة قائمة ولم تكن المناسبة الوحيدة التي يهتبلها متى ليظهر يسوع مع سحر وعظه وجمال تعاليمه، شخصا بمنتهى الفظاظة في علاقاته الشخصية .

التحول العظيم

الى هذا الحد كان تاريخ حياة يسوع تاريخ انسان سليم العقل جذاب الخصال . دعك من مواهبه وملكاتسه كخطيب شعبي ، وشاف للاسقام ، ونبي . على ان تغييرا هاما سرعان ما يحصل له . ففي يوم ما ، بعد ان خيب تلاميذه ظنه فيهم لسوء فهمهم رسالته ، اذ دبت فيهم الحيرة وأخذوا يتساءلون : اهو احد الانبياء القدماء بُعث ثانية ؟ واذا كان الامر كذلك فاي نوع من الانبياء هو ؟ وعندها نهض بطرس بغتة ليحل المشكلة اذ هتف يقول «انك انت المسيح ابن الله الحي !» فسرّ يسوع بهذا سرورا لا حد له واهتاجت عواطفه فصرخ قائلا ان الله قد اوصى لبطرس بما قاله ايعاء مباشرا . ثم جعل اسم بطرس تورية بأن اعلنه

(صخرة) (١) اي مؤسسا لكنيستته وقابلا بمصير كمصير الالهة حينما اعلن انه هو نفسه سيقتل عندما يدخل اورشليم . اذ لو كان هو المسيح حقا فان الجزء الضروري من مصيره الاسطوري يقضي ان يموت ميتة عنيفة غير طبيعية . ولما بدا على بطرس عدم الفهم لكلامه بدا بطرس يعاتبه منفردا لما بدا منه من كآبة مبعثها الخوف والجبين ، فيلتفت اليه وينتهره بحدة قائلا «أبعد عني ايها الشيطان . .» (٢) .

ويغدو يسوع منشغل البال بايمانه بألوهيته ويتكلم عن ذلك لتلاميذه بلا انقطاع مع انه كان يمنعهم عن التنويه بها للآخرين . فيبدأون خصاما فيما بينهم حول المراكز التي سيشغلونها في السماء عندما يأتي ملكوته ، فيزجرهم زجرا شديدا ويكرر وصيته بأن الرفعة والمنصب يعني الخدمة لا التسلط الا انه هو بالذات (وكان بطبعه متعاليا نوعا ما) يصبح دكتاتورى النزعة متعجرفا ، بل يبلغ حد الشراسة احيانا ولا يجيب منتقديه الا وفي اجابته امثولة جارحة ويبلغ به الامر ان يلعن شجرة تين خيبت أماله عندما قصدها ليحني ثمرها . ويتخذ كل تقاليد الالهة الفولكلورية ويعلن مثل جون بارلي كورن ! بأنه سيقتل شر قتلة ويدفن ، على انه سيقوم من القبر ويعود الى الحياة . ويعزو لنفسه تلك التقاليد الفبلية المجهولة الاصل والمنشأ: مباركة الخبز والخمر ومناولتهما لتلاميذه مشحوفة بعبارة «خذوا فكلوا هذا هو جسدي وهذا هو دمي» ويسهب عن تعاليمه نفسها فيهدد بالنار الازلية والعقوبات الابدية ويعلن فضلا عن قيامته البارلي كورنية ! بأنه سيأتي الى العالم ثانية يحف به المجد ويقوم مملكة على الارض . ويخشى بأن

١ - ورد تفصيلها في الفصل ١٦ من انجيل متى .

٢ - (ف : ١٦ ، متى) .

يؤدي هذا الى ظهور ادعاء مزيفين يزعمون انهم هو ويقول
بصراحة ودأب، ان مجيئه مقدر محتوم لا يجادل فيه احد (١) ومهما
صنع هؤلاء الادعاء من العجائب لاجتذاب الناس . وانه سيخر
كالنجم الثاقب من السماء بينما تنفخ الملائكة بالابواق اعلانا
لمجيئه . ويصرح كذلك بأن ذلك سيحصل في حياة اشخاص هم
الآن في قيد الحياة .

اورشليم والقربان السري

في هذه الحالة الفكرية الجديدة يدخل يسوع اورشليم اخيرا
وسط فضول وتطلع شعبي عظيم فيطرد الصرافين وباعة الاضاحي
من الهيكل محدثا ضجة وصخباً . ويرفض ان يتمتع نفسه بجمال
بناء الهيكل وروعته زاعما انه سيتقوض ولن يبقى فيه حجر على
حجر ، ويروح يشتم الكهنة والوجهاء ويسبهم سبا مقلدا . ثم
يُعتقل ليلا في احد البساتين اجتنابا لفتنة عامة فلا يبدي مقاومة،
لانه مقتنع بأن هذا هو جزء من مصيره بوصفه إلهاً - اي انه
مكتوب بأنه يقتل لينبعث حيا . ويحاول احد تلاميذه (٢) اظهار
مقاومة فيقطع بسيفه اذن الدين خرجوا لاعتقاله فينتهره
يسوع . الا انه لا يحاول شفاء الجرح ويصرح قائلاً انه لو رغب
في المقاومة فليس أسهل عليه من ان يدعو لنصرتيه اثني عشر
مليون ملاك ! ويُؤخذ الى رئيس الكهنة ، فيسلمه هذا بدوره الى
الحاكم الروماني الذي بحيره رفضه الصامت . وابطؤه الدفاع عن

١ - ف : ٢٤ ، و ف : ٢١ .

٢ - هو سمعان بطرس راس الرسل .

نفسه بأي شكل من الاسكال ، ولم يقبل دحض منميه ومن شهد عليه ، ذلك لان بيلاطس كان خالي الذهن طبعا من ان السجين يعتبر نفسه بأنه يجتاز اجراءات مفررة مرسومة لا بد منها ، من عذاب وموت ودفن باعتبارها اجراءات تمهيدية للبعث (القيامة) . وظل امام رئيس الكهنة ايضا يلزم الصمت . لكنه لم يتردد في الاجابة عن سؤال الكاهن الاكبر «هل انت المسيح ابن الله» بالإيجاب ويقول في معرض رده هذا انهم جميعا سيرون «ابن الانسان» جالسا عن يمين الأب ، آتيا فوق سحابة من السماء . وهو يحافظ على مسلكه هذا بشجاعة هائلة تبعث الرعدة فسي البدن ، عندما يجلدونه ويسخرون منه ويعذبونه ثم يصلبونه بين لصين . الا ان معاناته الطويلة لسكرات الموت من فرط العطش والآلام تغل من عزيمته اخيرا ، فيموت وهو يهتف «إلهي لمساذا تركتني ؟ » .

ليس هذا الرجل وانما برابا

في هذه الاثناء ينبذه الشعب والكهنة نبذا حازما قاطعا فينمطف عليه بيلاطس ولعجزه عن فهم جريمته بالضبط (ان التجديف الذي ارمب رئيس الكهنة لم يكن له تأثير على هذا الروماني) يحاول انقاذه بتذكير الشعب بأن العادة جرت ان يكون لهم الحق في ان يطلبوا اطلاق سجين في تلك المناسبة من العام ، ويقترح عليهم ان يطلق لهم يسوع لكنهم يصرون على ان يطلق لهم سجينا آخر يدعى برابا بدلا منه ، وان يصدر امره بصلبه . ولا يتقدم متى بأي تفسير للشعبية التي كان يتمتع بها السجين برابا وانما يصفه بأنه «سجين عظيم المكانة» ولا اكثر . وفي الاناجيل التالية تتضح هويته بشكل لا يعود مصدرا لحيرة فيذكر ان جريمته

هي التآمر على الدولة والثورة ، وأنه كان من مستبدي استخدام القوة المجردة المادية . وأنه رجل بطش . وهكذا بدأ اختيار برابا وكأنه تفضيل شعبي للقوة المجاهدة الباطشة على التبشير بالرحمة، وكراهة العنف .

القيامة

ثم يحدثنا متى كيف ان ملاكا نزل بعد ثلاثة ايام وفتح باب قبر عائلة يوسف الاريماي الغني فقام يسوع من جدته واستوى حيا ، وخرج من اورشليم ، عائدا الى الجليل واستأنف وعظه مع تلاميذه مؤكدا لهم بأنه سيكون معهم الى انقضاء الدهر . وفي هذه النقطة تنقطع القصة فجأة . . على انها ستبقى ابدا دون نهاية !

تاريخ حكاية متى

يمكن التوصل الى تاريخ كتابة الانجيل من غير معونة الباحثين من الوعد الذي قطعه يسوع بعودته ثانية ممجدا اثناء حياة بعض سامعيه . من المؤكد انه كتب اثناء حياة بعض معاصري يسوع اعني حين كان ممكنا ان يتحقق وعده بالعودة الى العالم ثانية . مات آخر شخص كان حيا وقت قول يسوع «لن يزول هذا الجيل الراهن حتى يرى ابن الانسان يأتي في ملكوته» وبذلك قضى على آخر احتمال بالعودة الثانية التي وعد بها الناس وايد رأي بيلاطس واليهود الذين لم يصدقوه . كتب متى انجيله وهو مؤمن بهذا المجيء الثاني ، ولذلك لم يكمل قصته وترك انجيله ناقصا ليختمه

به المنتظر . اذن فلا بد وانه كتبه خلال حقبة من العسر
، خلالها عملية الصلب . كذلك لا بد وان متى كان يعتقد بأن
الكتب ستكون في مستقبل الايام احدى متع ملكسون
اوقات والارض !

ب الطبقي ليسوع متى

سناك اتجاه خاص في متى يجب التنبه به . انه بدأ قصته
، يوحى للقارىء ان يسوع ينتمي الى اعلى طبقة في البلاد في
يشير فيما بعد ان يسوع عندما حاول ان يخطب فسي
لـ واسبه ، لم يلق نجاحا وازدر عنه الناس قائلين «اليس هو
لننحدر من؟» (١) على ان سلوك يسوع كان سلوك ارسطراطي
، او هو على اقل تقدير سلوك ابن برجوازي غني ، لا سلوك
من متأخر العقلية ، في هذا المجال . كذلك علينا ان نحذر من
بأن يوسف لم يكن غير نجار بروليتاري عصري يعمل باجور
عيفة . بل ينبغي لنا ان نتصوره صانعا حاذقا منحدرًا من نسل
. فاذا قدرنا ان يكون يوحنا المعمدان اشبه شيء بكايسر
ي (٢) ، فان يسوع متى هو من طبقة رسكن وموريس (٣) .

— يطابق متى مرقس في هذه الرواية تقريبا : (ف ١٣ متى ، ف ٦ مرقس) .
— James Keir Hardie (١٨٥٦ - ١٩١٥) عامل في منجم للفحم
ي اسكتلندي . ذو نزعة اشتراكية اشتمل في الحقل السياسي وانتخب
في البرلمان الانكليزي .

John Ruskin (١٨١٩ - ١٩٠٠) احد الكتاب الاقتصاديين والسياسيين
— ووليام موريس William Morris (١٨٣٤ - ١٨٩٦) هو من عباقرة

كان هذا الخلق المتعالي شديد الظهور فيه بحيث انه لو لم يكن لدينا من الوثائق عنه غير انجيل متى فلن نشعر نحوه بأقل مما نشعر به الآن ولتحتّم علينا ان نكون أقل اشمئزاً بكثير من قولنا الحالي : «دوئك رجلا كان صاحيا متزنا حتى خلع عليه بطرس لقب المسيح فأصبح بعدها مبتليا بداء البرسام (1) » ولترتب علينا ان نتسر بأن واهمنه هذه هي مما هو شائع جدا بين المجانين ، وان جنونا كهذا لا يتنافى مطلقا مع وجود الدهاء والعمق واصالة التفكير التي أظهرها يسوع في القدس بعد ان استحوذ عليه وهمه تماما واحتل جوانب عقله . اننا والحالة هذه ، لنستنكر ونسنهول انزال عقوبة الجأد به وصب الالهات عليه وصلبه ، مثلما كنا نستفزع معاملة رسكن بهذا الشكل عندما ادركه الجنون هو الآخر بدلا من العناية به ويعالج كما يعنى بالمرضى ويعالجون ، ولبقينا في حيرة من امرنا ، لا ندرك بوضوح ، الالهية الخاصة التي تنطوي عليه تسميته (بابن الله وابن الانسان) ولوجب علينا ان نحفظ بأنه اشتراكي النزعة ، وانه لشديد الرعاية لحرمة ما نسميه بالقانون والنظام بوصفهما آلتين لسلب الفقراء وتجريدهم من مقتناتهم ، تحت مزاعم شرعية . وبأنه يرى روابط القربى والجماعة شراكا للروح تتفق والمثل القائل «كلما زدت قريبا من الكنيسة زدت بعدا عن الله» وانه رأى بوضوح تام ان سادة المجتمع يجب ان يكونوا خدام المجتمع لا مضطهديه ولا طفيليه . وانه مع عدم اشارته لنا بقتال اعدائنا ، فقد اوصانا بأن علينا ان نحبههم والندرن

الانكلير . جمع الشعر والفن والهندسة والزخرف ، وكان معروفا بنزعتيه الاشتراكية ، وكلا الرجلين ينتميان الى الطبقة العليا .
 1 - monomoniac : وهو جنون الفكرة الواحدة التي تسلط على التفكير وتتحكم في كل تصرفات الانسان .

بان من «أخذ بالسيف ، فبالسيف يؤخذ» وكل هذا يضع منه امام
اعيننا قوة عظيمة ، قوته في النظر من خلال اوهام مبتذلة ومقدرته
على الوصول الى قيم اخلاقية اعلى من اية قيسم تنبت في اي
مجتمع متمدن . الا انها تضع يسوع فوق كونفوشيوس او
افلاطون دعك من فلاسفة واخلاقيين آخرين احدث من هذين
واقرب منهما عهدا .

الفصل الثالث

مرقس

التلاميذ ، النساء ، الصعود

الا فلتر ، هل بوسمنا استخلاص شيء من مرقس (1) اكثر

١ - لم يكن هذا الانجيلي من الرسل الاثني عشر بل على حد قول بعضهم من التلاميذ الاثني عشر والسبعين الذين ارسلهم يسوع، اثني عشر الذين - وزم آخرون انه الشاب الذي تبعه لما اخذه اليهود من يستان الزيتون وحجتهم ان مرقس انفرد برواية ما جرى لذلك الشاب كانه يريد الاشارة لنفسه «وتبعه شاب ليس عليه غير ازار فأمسكوه فتخلص من الازار وهرب عريانا (ف ١٤) » . كان مرقس مع بولس في رحلته الاولى (٤٤ م) الى قبرص وآسيا الصغرى ورجل ثانية مع نسيه برنابا ما بين السنة ٥٠ و٥٢ م. وفي ٦٢ م نراه يصحب بطرس ويعاونه . وتجمع

مما استخلصناه ؟ والشيء بالشيء يذكر ان انجيل مرقس يفترض بأنه أسبق تأليفاً من انجيل متى . وهو مقتضب موجز لا تلبث ان نرى انه لا يضيف شيئاً الى ما أورده متى الا باختتامه القصة بحادث صعود المسيح الى السماء ، وبخبر مؤداه ان عدة نساء صحن يسوع الى اورشليم ، ومنهن مريم المجدلية التي اخرج منها يسوع سبعة شياطين . ومرقس من الجهة الاخرى لا يذكر شيئاً عن ميلاده ولا يتصدى لسيرته الا عند اعتماده وهو رجل بالغ ، على يد يوحنا المعمدان . والظاهر منه انه يعتبر يسوع مواطناً ناصرياً مثل زميله يوحنا الانجيلي ، وليس من سكان بيت لحم كما يذكر متى ولوقا . وبيت لحم هي مدينة داود التي يقول متى ولوقا انها مسقط راس يسوع . ويصف مرقس عقيدة يوحنا بأنها «معمودية التوبة لفقران الخطايا» . اعني انها شكل من اشكال المذهب الخلاصي . ويحدثنا فضلاً عن ذلك ان يسوع دخل الكنيس وعلم فيه لا كما يعلم الكتبة ، بل كشخص ذي سلطان (1) اعني كما نستدل منه ، انه علم مبادئه الخاصة بوصفه اخلاقياً ذا مذهب أصيل ، لا خطيباً مردداً اقوال الكتبة . وهو يصف معجزة يسوع بوصوله القارب ماشياً فوق صفحة مياه البحر ولا يذكر شيئاً عن محاولة بطرس تقليده في سيره على الماء . ويرى مرقس

الروايات انه ترك روما بعد شهادة بطرس وفي 68 م استشهد هو نفسه في الاسكندرية . يقال ان انجيله مأخوذ عن ذكريات بطرس وبولس ولهذا يعدونه أشبه بمذكرات لهما ، وقيل انه دوّن ما قبل العام 64 م في روما بناء على طلب مسيحييها . وليس هناك دليل يشير الى ان انجيل مرقس كتب قبيل انجيل متى كما يقول شو في الاصل .

1 - اي ذو سلطة تشريعية لا يقتصر في تعليمه على التفاسير والشروح كما يفعل الكتبة وانما يستنبط القواعد من عنده .

الأمور بشكل ادق مما يراها متى ويضع لمسات واضافات مسن التفاصيل التي تعرض الاحداث امام القارىء بوضوح فيقول مثلا: بينما كان يسوع يسير فوق الامواج «كاد يجاوزهم فلما راوه كذلك صرخوا لانهم ظنوه خيالا» . ويبدو انه شعر بأن معاملة يسوع للمرأة الكنعانية تتطلب بعض الاعتذار لذلك جعلها «امراة وثنية ترجع الى اصل سوري فينيقي» وهو مبرر لاستخدام كل فظاظه معها في رأي مرقس : ويقدم لنا والد الصبي الذي كان ابنه مصابا بداء الصرع فشفاه ، ليضع على شفثيه القول الآتي: «آمنت فشدد ايماني الضعيف» بوصفه واحدا من المرتابين في رسالته . ويروي قصة الارملة التي لا يذكرها متى . ويوضح ان برابا كان ملقى في السجن مصفدا بالاغلال مع اولئك «الثائرين» الرجال الذين اجترموا القتل في تورة . واما يوسف الرامي الذي قسام بدفن يسوع في صريح الاسرة الخاص والذي يصفه متى بأنسه «تلميذ» فيقول عنه مرقس انه «كان من الذين ينتظرون ملكوت الله» . مما يوحي للمرء انه كان «باحثا مستقلا» . ويستاهل مرقس الشكر لانه لا ينوه بشيء من النبوءات القديمة وهو بذلك يكشف عن عدم ايمانه «بالوقت والاجل المضروب» بل يجتنب التورط في قوله ان يسوع كان يجتاز فحفا مسبقا على ضوء النبوءات التي وردت في الكنب تلك النبوءات المنتظمة مثل انتظام الساعة ، بدلا من مجرد حياة امتيادية مثل حياة سائر البشر . اخيرا يذكر ان يسوع ذكر بعد قيامته بأن «من آمن واعتمد يخلص ، ومن لم يؤمن يقضى عليه ويلعن» لكن يصعب علينا مفهوم حالة «القضاء واللعنة» اهي حالة خطأ ؟ ان علماء المخطوطات القديمة يقولون بأن هذه العبارة مدسوسة اقحمها كاتب متأخر . وعلى العموم ، يترك مرقس القارىء العصري ، حيث تركه متى تماما .

الفصل الرابع

لوقا

لوقا الاديب والفنان

عندما تأتي الى لوقا فاننا تأتي الى متحدث ومنتسئ متأخر ، الى شخص يملك في مجال فنه ، موهبة كتابية ، تفوق مواهب الآخرين قوة . وانك لتحس قبل ان تنتهي من قراءة عشرين سطرا منه بانك اجتزت اسلوب كتابة المؤرخ الذي يدون الوقائع الهامة فحسب ، وولجت حرم الفنان الذي يروي حكاية . تراه مسن البدء ينظم اروغ قصيدة في التوراة واعمظها سحرا تلك هي قصة مريم التي يضطرها ازدحام الفندق الى ان تلوذ بالاسطبل لتضع ابنها في المدود . وقصة الرعاة الساكنين في الحقول لحراسة قطعانهم ليلا ، كيف ظهر لهم (ملاك الرب) واضاء مجده لهم ، وانضمام جموع غفيرة من الارواح السماوية فجأة حيث

يتوجه الرعاة الى الاسطبل ليتخذوا مكان الملوك في حكاية متى .
هذه القصة استولت على خيالنا واسرت حواسنا اسرا تاما بحيث
افترض معظمنا انها موجودة في كل الاناجيل وليست قاصرة على
انجيل لوقا . انها لقصة فريدة لم يخطر منها شيء في يسأل
الآخرين .

سحر قصة لوقا

يجلو لوقا سحر الرواية العاطفية في كل حكاية من حكاياته .
«فالبشارة» في انجيل متى تأتي يوسف بمثابة انذار له بالأطلاق
زوجته بسبب سوء السلوك ليس الا . اما في لوقا فان البشارة
تأتي مريم بالذات . وباسهاب وتفصيل كثيرين . مع شعور بفرح
عروس (الروح القدس) وبغبطة الام . ويسوع في حكاية لوقا هو
مهذب رقيق الحاشية حتى انك تكاد لا تميزه . والتلميذ يوحنا
المعمدان الصارم الذي لا تين قناته ولا يعصم فريسيا او احدا
من الكتبة ، دون عبارة مهينة ، يغدو انسانا لين العريكة اجتماعيا
حتى ليكاد يبدو حضريا . وهكذا يصبح اليهودي المنعصب
متسامحا مواليا للكفرة الانجاس . وينطرد عن (مجمع) بلده طردا
عندما يذكر المصلين بان الانبياء فضلوا الكفرة على اليهود احيانا .
وفي الواقع انهم حقدوا عليه الى الحد الذي ما كانوا يترددون في
قذفه من اعلى ما هو اشبه بالصخرة التي يستخدمونها لتنفيذ
احكام الموت . الا انه يشق طريقه من بينهم وينجو ، وتلك هي
الاشارة الوحيدة الى اعنماده المقاومة بالسلاح في الاناجيل كلها .
ولا تجد كلمة واحدة عن المرأة السورية الفينيقية . وفي النهاية
تراه يرتفع بهدوء ويقهر آلامه ويرتجل كلمة وهو في طريقه الى
ساحة الموت برباطة جأش لا يشوبها اي اضطراب ، ولا يصيبه

الياس وهو مسمر على الصليب ، ويموت بكل جلال ووقار مستودعا الله روحه بعد ان طلب المغفرة لقاتليه متعللا بأنهم « لا يدرون ما يفعلون » وبحسب ما جاء في متى ان شتم اللصين اللذين صلبا معه كان جزء من فظاعة ميته . اما عند لوقا فان واحدا منهما فقط شتمه ، واما الثاني فقد راح يؤنب صاحبه ، ويرجو من يسوع ان « يذكره في ملكوته » ، فيجيبه يسوع قائلا: « اليوم تكون معي في الفردوس » مثبتا بأنه سيقضي ايام وجوده في عالم الاموات هناك . وبمخبر القول استخدمت في هذا الانجيل الوسائل جميعها للنخلص من الغلاظة والقسوة التي حفلت بها رواية متى ، وتم ارخاء العنان للتوتر العاطفي بحكايات استطرادية مؤنرة ، وباظهار يسوع روحا ارفع من آلام البشر واسمى . ان يسوع لوقا هو اليسوع الذي يأسر قلوبنا اسرا !

اثر الرواية الباريسية الرومانسية

ان اجتناب لوقا الرومانسي كل ما يبعث على الحزن والاسى، ورقة احساسه ورهافته تتجلى في روايته قصة المرأة صاحبة الطيب . ان متى ومرقص يفيدان بأن الحادثة وقعت في بيت شمعون الابرس فاعترض يسوع على عملها هذا ، اذ وجد فيه تبديدا للمال . اما في رواية لوقا فالابرس ، يغدو فريسيا غنيا ، والمرأة تصبح من قبيل (غادة الكاميليا) (1) ، وفي الواقعة كلها لا يرد ذكر شيء عن الفقراء والمال ، والمرأة هنا تقوم عرضا لا تقصدا

١ - عنوان رواية مشهورة لالكساندر دوماس الابن (١٨٢٤ - ١٨٩٥) تسروي مأساة ماهرة باريسية تالية احبت باخلاص شابا ، ثم آثرت التضحية بحيها لاجله .

بغسل قدمي يسوع بدموعها وتجففهما بشعرها ، فيللم لانه ترك
امرأة خاطئة تلمسه . والقصة تكاد تكون اقتباسا عن متى البعيد
كل البعد عن خيال المسرح الباريسي . هناك محاولة واضحة
لاسترعاء الاهتمام الانثوي بالامر . واللمع الخفيفة الهادية التي
قدمها مرقص ، تناولها لوقا وأجرى فيها يد التحوير والتطوير ،
وبز هذا الانجيلي اقرانه في الحديث الطلي عن ام يسوع وعن
مشاعرها وأسهب في قصة النسوة اللاتي تتلمذن على يسوع وهو
ما لم يذكره مرقس الا لتعليق وجودهن عند قبره . فلوقا يقدمهن
قبل هذه المرحلة ، ويسمي لنا بعضهن ، وهكذا ترانا نتعرف بحنة
امرأة قوزي خازن هيرودس وسوسان . كذلك تجد حكاية بينية
استطراذية طريفة بين مريم ومرتا . وهناك ايضا مثل الابن السفية
(الابن الضال) ذلك المثل الجذاب المفرط في الخيال الذي ظل دوما
نيراسا وقبلة لكل من شارل سرفيس (1) ودي كرو (2) ، وثم
ايضا قصة النسوة اللاتي يتبعن يسوع حتى الصليب ، وهو يلقي
فيهن خطبة تبدأ بعبارة (يا بنات اورشليم) (3) قد تبدو هذه
التحويلات طفيفة ، الا انها في الواقع تحدث في جو القصة تبدا

-
- 1 - Charles Surface : بطول مسرحية مدرسة العضاسح
The School for Scandal وهي مسرحية هزلية شهيرة للكاتب الانكليزي
شريدان (1751 - 1816) بطلها انسان في مقتبل العمر مستهتر لا يقيم وزنا
لاي شيء .
- 2 - Des Grieux بطل نفسه مانون ليسكو الشهيرة وهي من تأليف
الاب بريفوس (1717 - 1763) وتحكي مأساة شاب طيب الارومة علق بحب فناة
ساقطة قلب لا يقيم وزنا لاي شيء . يبلغ من تعلقه بها انه يصحبها الى منفاها
بعد ان حكم عليها بالنفي .
- 3 - لوقا ف 23 .

عظيما . ان يسوع متى لا يمكن ان يكون ما ندعوه بلفظة العامة «بطل النساء» . (ومع حقيقة ان المطلب الجماهيري العام للاحاسيس والمشاعر ، بقدر ما لا يكون انسانيا صرفا ، هو رجولي المنحى اكثر مما هو نسائي !) . على ان لوقا اتاح الفرصة لانتشار تلك الصور التي تعلق الآن في غرف كثير من السيدات وفيها يظهر يسوع مثلما تشاهده في السينما في لورد (1) حيث يقوم بتمثيل دوره ممثل حسن الصورة . ان لمسة الواقع الوحيد التي لم يطمس لوقا آثارها متوخيا ابراز هذه النواحي من الطيبة في يسوع ، هي اللوم الموجه اليه لجلوسه الى المائدة دون ان يغسل يديه ، فقد ابقى عليها ونقلها كما هي ، لان حديثا هاما كان يتوقف على وجودها مثلما اوردها دون تحوير .

انتظار المسيح

هنالك وجه جديد آخر في روايه لوقا ، وهو انها تبدا بين مجتمع كل امرىء فيه كان يرتقب مجيء المسيح . في انجيلي متى ومرقس يأتي يسوع الى دنيا مادية كدنيانا اليوم . والامل اليهودي العتيق جدا في مجيء المسيح لم يبدأ بالتمخض والانفاض الا عندما تنبأ يوحنا المعمدان بان سيأتي من هو اعظم منه . وبما ان يسوع بدأ تلميذا ليوحنا هذا ، وعمد على يده ، فلم يربطه احد بهذا الامل حتى نزل على بطرس الوحي المفاجيء الذي خلق ذلك الاثر المدهش العظيم في يسوع على انك تجد في انجيل لوقا عقول الرجال ، وعقول النساء بالاخص ، ملأى بالامل المستوفزة بمجيء المسيح لا قبل ميلاد يسوع وحده ، بل قبل ميلاد يوحنا . وهذا

« Lourdes : مدينة في جنوب فرنسا اقيم فيها مزار مقدس .

هو الحديث الذي يستهل به لوقا قصته فيقول انه فيما كان يسوع ويوحنا جنينين في رحمي والدتهما ، اذ بالجنين يوحنا يرتكض في بطن امه عند اقتراب الجنين يسوع منه في زيارة للأُمّين التقتا بها . وفي يوم ختان يسوع يحيى انقياء الرجال والنساء الوليد بوصفه المسيح المنتظر .

على ان يوحنا نفسه لا يقتنع . فبادر الى ارسال شابين اليه في عهد متأخر جدا من حياة هذا (التلميذ) ليسألاه : اهو حقا المسيح المنتظر ؟ ان هذا لقمين بالاهتمام لان يسوع يقدم لهما على الفور عرضا خاصا مقصودا لطائفة من المعجزات ، وبطلب منهما ان يبلغا يوحنا بما رايا وان يسألاه بعد ذلك ما هو رايه فيه ؟ (١) ان هذا يتناقض مناقضه صريحة تامة لما اطلقت عليه «وجهة نظر روسو في العقيدة كما استخلصت من متى» . ان لوقا يكشف عن كل غفلة الروائي وسداجته بخصوص المعجزات . فهو ينظر اليها بوصفها «اشارات» ، اي براهين على الوهية صانعها وليست مجرد قوى وسحر وشعوذة . انه ليضطرب للمعجزات كما يضطرب للامثال . فهي مادة لصياغة ابداع الاقاصيص . ولم يكن بوسعه ان يترك دعوة بطرس ويعقوب ويوحنا وهم في قوارب صيدهم ، تمر مرور الكرام بدون تلك الاعجوبة الهائلة اعجوبة اخراج السمك الكثير بالتسبكة مما يؤدي الى غرق القارب ، فيقفز بطرس ويهتف : « اتركني اغرق ، اني من الخطاة يا سيد ! » مما يمكن ترجمته بالاتي : « لا اريد شيئا بعد من معجزاتك ، فصيد السمك العادي يكفي قواربي » .

هناك طرائف اخرى في رواية لوقا منها : ان بيلاطس يرسل يسوع الى هيروودس الذي كان قد اظهر فضولا وحب استطلاع في

شأنه ، الا ان المعتقل لم يرض فضوله وخيب امله فقد ابى ان يحدثه . ويساء استقبال يسوع في قرية سامرية فيقترح يوحنا ويعقوب تلميذاه ، ان يدعو من السماء لتصب نارا على القرية وتحرقها ، فيجيبهما يسوع بأنه ما جاء ليهلك بل ليخلص . ويظهر ايضا تحامل يسوع على علماء الشريعة ، ويبرز كذلك قراره بأنه لا يسلم لاقربائه برابطة اكثر من رابطته بالاغراب ، وينتهر المرأة التي باركت امه . ولما كان هذا كله يناقض تقاليد الخيال والعاطفة ، فكان المفروض في لوقا ان يتحاشاه لو لم يعد مقتنعا بأن اخوة الانسان وابوة الله هي الاسمى حتى من الاعتبارات العاطفية وقصة ذلك الفقيه الذي يساله ما هي اهم وصيتين من الوصايا العشر ، يحورها بشكل يجعل يسوع هو السائل بدلا من ان يكون المجيب (١) . واما عن العقيدة ، فلوقا لا يكون واضحا الا عندما تستثار متاعره . ان منطقته ضعيف اذ الصق جانبا من اقوال يسوع بعضها ببعض على نحو خاطيء . وهذا ما لا يصعب اكتشافه على من قراها بترتيبها الصحيح وسياقتها المنطقي في انجيل متى . انه لم يستخرج جديدا في رسالة المسيح ويرى كغيره من الانجيليين ان غاية هذه الرسالة وجوهرها هو ان يسوع هو المسيح المنتظر منذ عهود طويلة . وانه لن يلبث بعد موته ان يعود الى العالم ليقيم فيه ملكوته كما هو مكتوب . وها هوذا قد نبعث حيا بعد ثلاثة ايام . على ان لوقا لا يسجل التعاليم بوصفها

١ - لوقا ف : ١٠ «واذ احد علماء الشريعة قد قام فقال ليحرجه : يا معلم . ماذا اعمل لارث الحياة الابدية ؟ فقال له : ماذا كتب في الشريعة (الوصايا) وماذا تقرا فيها ؟ فاجاب السائل : احب الله ربك بجميع قلبك وجميع نفسك وجميع قدرتك وجميع ذهنك واحب قريبك حبك لنفسك . فقال له بالصواب اجبت اعمل هذا تحي» .

توطئة للتسوية او نبدا وشجبا لعاطفة الحقد ، (وهذا ما لا علاقة له بالمجيء الثاني بطبيعة الحال) وانما بذهب الى ابعد من هذين الفرضين فيأتي بمبدأ عجيب لا يتفق معهما وهو ان البتر يجب ان لا يدوروا حائرين منسائلين عن ملكوت السماء وهم يهتفون بلهفة «ها هوذا هنا!» او «ها هوذا هناك!» لان ملكوت السماء هو فيهم . الا ان لوقا لم يدرك بان هذا يعود الى وجهه نظر في مسيحية مختلفة جدا . بل يبقى محافظا على وجهة نظره في الملكوت بوصفه موضعا حقيقيا ومكانا ثابتا كمدينة اورشليم او جزيرة مدغشقر .

الفصل الخامس .

يوحنا (١)

قصة جديدة ، وشخصية جديدة

انجيل يوحنا هو في الواقع مفاجأة بعد الاناجيل الثلاثة الاولى . فمتى ومركس ولوقا يسردون الوقائع والاحداث نفسها بالانتظام ذاته (مع اختلاف طفيف عند لوقا) واناجيلهم تدعى والحالة هذه بالاناجيل المتناظرة ، وهم بالاصل يقصون قصة

١ - ويعرف بيوحنا الحبيب . ولد بعد المسيح ببضع سنوات ، وهو شاهد عيان وسماع لما كتب من اخبار يسوع . انكر بعض المؤرخين نسبة هذا الانجيل اليه الذي دونه في اواخر سني حياته الى جانب ثلاث رسائل في اعمال الرسل ، وسفر الرؤيا وهو آخر كتب العهد الجديد .

واحدة عن المعلم المتجول الذي جاء اورشليم في اواخر حياته .
 اما يوحنا فيصنف معلما قضى فعلا مرحلة بلوغه كلها في العاصمة .
 بما يتخلل ذلك احيانا زيارات الى الاقاليم وروايته الاستطراذية
 لدعوة بطرس وابني زبدي تختلف تماما عن رواية الآخرين . فهو
 لا يقول غير انهم كانوا صيادي سمك . ويشدد في القول
 متعمدا بان يسوع لم يمارس هو نفسه عملية العماد وان كان قد
 عمّد بيد يوحنا الا ان تلاميذه مارسوها . وتنقلب عنده استفاضة
 يسوع الاليمة عندما ختم على مصيره في بستان جسيماني (١)
 الى مجرد اقتراح يتقدم به المسيح في الهيكل في فترة تسبق ذلك
 بكثير . فيه لامبالاة وبرودة دم (٢) . يحاول يسوع في هذا
 الانجيل بتسدة تفوق كثيرا ما نجده في الاناجيل الاخرى . وتعظم
 شكواه من التحامل عليه ، والإغراض الذي يلقاه ولا تجده ساكتا
 امام قيافا وبيلاطس . كذلك نجده يؤكد على قيامه واكل جسده
 تأكيدا شديدا (فينصرف عنه تلاميذه جميعا باستثناء الاثني عشر)
 ويقول اشياء ظاهرة المناقض والسخف لا نجد لها الفارء العادي

جسمانية : كلمة عبرية معناها «مصرة» .

لوقا ف : ٢٢ : «ثم ابتعد عنهم معدار رمية حجر وجنا يصلي فيقول :
 ان شئت فأصرف عنى هذه الكأس ولكنها مشيئتك لا مشيئتي» . وفي
 ف : ١٤ : «ثم ابتعد قليلا ووقع على الارض يصلي لتبتعد عنه الساعة
 استطاع قال : يا ابتاه انك على كل شيء قدير فأصرف عنى هذه الكأس .
 كما انا اشاء بل كما انت تشاء» . وفي متى (ف٢٦) «واكب على وجهه
 فيقول : يا ابتاه فلتبتعد عنى هذه الكأس ان كان استطاع لا كما انا اشاء
 ا انت تشاء» . ويريد شو ان يظهر الفرق بين ما اورده هؤلاء وبين ما
 (يوحنا : ف ١٢) «الآن نفسي قلقة فماذا اقول ؟ اقول يا ابتـ نجني من
 لساعة ؟ وما بلغت الى تلك الساعة الا من اجل ذلك ؟ يا ابتـ مجد اسمك» .

اي تفسير ويخلف عن نفسه في الازهان انطبعا بكونه صوفيسا
مثقفا ، ولا نقول صوفيا سفسطائيا. ويبدو مختلفا في الشخصية
والمران عن ذلك الواعظ البسيط الصريح الذي تراه في رواية متى
ومرقس او تلك الشخصية المدنية الساحرة اللينة الجانب عند
لوقا . كان اليهود يقولون عنه في الواقع «كيف يعرف هذا الرجل
بالكتب وهو لم يتعلم ؟» .

يوحنا : شاهد العيان الخالد

فضلا عن هذا كله فيوحنا يدعي بأنه شاهد عيان الى جانب
كونه كاتب سيرة ، ويصرح بأنه «التلميذ الذي كان يسوع يحبه»
ويزعم انه اتكا على صدره في العشاء الاخير وسأله همسا عمسن
سيقوم من بينهم بتسليمه فهمس يسوع في اذنه جوابه قائلا :
«هو الذي اناوله اللعنة التي اغمسها» ثم غمس لقمة خبز ورفعها
وناول يهوذا فاكلها فدخل فيه الشيطان بعدها . وهذه رواية
اقرب الى العقل والطبع من الروايات الاخرى التي تجعل يسوع
يتسیر بصراحة الى يهوذا دون ان تثير اشارته احتجاجا او تعليقا
او انكارا . وهي تفترض ايضا ان يسوع نقصد ان يؤثر بقواه
المعجزة على يهوذا ليدفعه دفعا الى تسليمه . ويدعي يوحنا في ما
بعد ان يسوع قال لبطرس «لو شئت ان يبقى الى ان اعود فماذا
يعنيك ؟» ويضيف يوحنا الى ما سبق بنوع ما من التواضع الساخر
بان عليه الا يدعي بالخلود كما استنتج التلاميذ لان المسيح لم
يستعمل هذا التعبير بل مجرد القول «لو شئت ان يبقى هذا الى
ان اعود فماذا يعنيك ؟» . لم يزعم اي انجيلي آخر لنفسه هذه
العلاقة الصحيحة بالمسيح او حتى الادعاء بأنه عاصره او كان من
جيله (ليس ثم اي دلائل تؤيد لنا ان متى العشار هو متى كاتب

الانجيل) ، ويوحنا هو الانجيلي الوحيد الذي لا يمكن ان تتفق روايته لسيرة يسوع ووصفه شخصينه مع ما اورده متى عنهما . وهو يكاد يكون بمسنوى واحد مع متى في ايراده الايضاحات تكرارا وبصورة سيئة ، عن اعمال المسيح قائلا مثله انها تهدف الى تحقيق وتطبيق النبوءات التي سبق ان جاد بها الانبياء وليس اكثر من هذا . وما يؤخذ عن يوحنا من انطباع سيء يفوق مسا يؤخذ عن متى ، فهو يفوقه ثقافة وعمقا ، ويمتاز بصوفية عقلية غير طبيعية كانت مستحوذة عليه تماما ، فاكتسافه غباءه او سطحيته في هذا الامر البسيط يحملك على بفضه وضعف الثقة به رغم سحر اسلوبه الكتابي العظيم ، وخير مثال لذلك هو تغييره تلك الحادثة التي تمتاز بالفظاظة بخصوص المرأة الغنية، الى حكاية لطيفة هي حكاية المرأة السامرية (١) . وهذا ما يجعل مسألة كونه يوحنا التلميذ ، او الرجل المعاصر ليسوع بل حتى من الجيل التالي ، امرا يحوطه الشك والريب . كل هذا اصبح موضع اخذ ورد ولم يقبل به في الاخير . لكنني اكرر مرة اخرى : اني لا اهتم هنا ، بالنزاع الذي ينشب بين الخبراء المختصين بشؤون تاريخ الاناجيل ، لا لاني اجعل ذلك بل للسبب الآتي : لما كانت اقدم النسخ التي وردتنا هي مخطوطات يونانية كتبت في القرن الرابع الميلادي ، ولما كانت النسخ السريانية الميسورة ، هي ترجمات عن اليونانية فان الخبر في المخطوطات القديمة لن يشق عليه التوصل الى اية نتيجة يتفق انها تقع موقعا طيبا من نفسه او توائم عقيدته الخاصة ، وهو كذلك لن ينجح مطلقا في اقناع زملائه الآخرين من الخبراء الا عندما يتفقون في اليول والهوى والعقيدة ! ومن هذا استنتج ان تاريخ الرواية الاصيل لا يمكن تعيينه تعينا ثابتا

١ - يوحنا : ف ، ٤ .

وعلىنا الاعتماد على الانجيليين انفسهم . هناك كما رأينا - اختلاف واضح جدا فيما بينهم لا يترك شكاً بأننا نتصدى لؤلفين اربعة ، يختلفون فيما بينهم اختلافاً بيئياً ، الا انهم ينتهون جميعاً الى نفس موقف واحد الا وهو توقع المجيء الثاني الذي يتفقون حوله بالقول ان يسوع قد وعد وعدا أكيدا لا شك فيه بأن يتم هذا (المجيء) في حياة أولئك الذين عاصروه . وكل مؤمن يصنف انجيلياً بعد ان يموت آخر واحد من المعاصرين ينبغي له اما ان يرفض كل ما تعلق بهذا الوعد من روايات ، او بحذفه حذفاً ، على اساس انه ما دام الوعد لم ينجز ، فليس بالامكان ان يتحقق» وأن عليه الاقصرار لليهود الذين كانوا احد منتقدي المسيحيين بأن يسوع هو اما دجال واما ضحية وهم ، والا فكل الانجيليين عدا متى يصرحون بشكل بيّن انهم مؤمنون . ومن الواضح ان رواية متى ليست رواية مرتاب لذلك فأنا افترض بأن الاناجيل (بعد اطراحنسا التضمين والدرس) انما استمدت وقائعها من حكايات دوتت في القرن الاول الميلادي . وانا اعتبر افتراضى هذا من قبيل المسلمات البديهية ، ولا استثنى يوحنا من قراري ، لانه مع صيانتة لمركزه (بادعاء انفراده بالتفات وحب خصوصيين من يسوع حتى انسه وعده بحياة عجيبة تمتد الى ما بعد مجيئه الثاني) فيستنج والحالة هذه انه يجب ان يكون من الاحياء حتى هذه الساعة ! وهنا لا يعني الاعتقاد ، بأن مزورا ادبياً قد يأمل في انقاذ الموقف بهذا الادعاء الواضح الزيتف . كذلك كانت رواية يوحنا في كثير من فقراتها اقرب الى حقائق الحياة العامة من رواية متى البسيطة او قصة لوقا العاطفية . وقد يكون مرد هذا الى ان يوحنا هو رجل حياة وواقع اكثر من الثلاثة الآخرين ، عرف ما لا يعرفه غيره من كتّاب السير او من الروائيين مما يحدث فعلاً بعيداً عن الكتب والمناضد، لكن من المحتمل ان يكون امره هكذا ، لانه سمع ورأى ما حصل فعلاً ، بدلا من جمع الاخبار . ولخبراء المخطوطات القديمة ،

ومثني تواريخ اول الروايات ان يقولوا ما يساؤون ، فيوحنا ، فبوحنا بادعائه انه ذو شهادة عيانية ، في حين صنف الآخرون تاريخا لا غير ، انما ادعاء تدعمه ارجحية من الصدق تهفسو اليها نفسي . فأراه كمن بشر بعقيدة جديدة وجادل فيها فضلا عن كتابته قصصا . ان حجة الصدق المرجحة هذه ، قد تكون فنا دراميا تدعمه معرفة بالحياة العامة . ولكن علينا ان لا ننسى حتى في هذا ، ان افضل الفن الدرامي انما يتحقق باستخدام غريزة التنبؤ لاجل الوصول الى الحقيقة . ومهما يكن من امر ، فيوحنا لم يكن بالتأكيد ، ذلك الرجل الذي يؤمن بالمجيء الثاني . ومع هذا فهو يعرض تاريخا ثانيا بعد القضاء التاريخ الاول . وفي الحقيقة انه لا مناص لنا من الاستنتاج بأن تاريخ أصول الاناجيل انما يبتدىء من الفترة التي كان يحتمل ان يقع خلالها المجيء الثاني في الوقت الذي عينه يسوع آجلا .

لاهوتية يسوع الغريبة

مع الشكوك التي تثيرها غرابة اطوار يوحنا فان قصته عظيمة الاهمية لاولئك الذين يتخذون الانجيل مرجعا لاستمداد دين عصري معقول . ذلك لان يوحنا هو الذي يضيف الى الروايات الاخرى اقوالا جديدة مثل : «انا وابي واحد» و«الله هو الروح» ، ولا يقتصر هدف يسوع على ان يكون للبشر حياة ، بل ان تكون تلك الحياة «اكثر غزارة» (امتياز يحتاجه كثيرا اولئك الذين يرون انما ان يكون الانسان حيا او يكون ميتا . ولا يفكرون بأهمية معرفة الى اي درجة هو حي ؟) وأن على البشر ان يتذكروا دوما ما قيل لهم في المزمور الثاني والثمانين (1) بأنهم آلهة وانهم مسؤولون عن

١ - يشير شو الى الابيات ٣ و٤ و٦ من المزمور المذكور وهي :

اعمال رحمة الله وعدله . وقد رجمه اليهود لهذه الاقوال ، ولما انبهم لغباوتهم وقصر نظرهم هذا ، برجمهم شخصا لم تقدم يده الا على الحسنات والصالحات ، اجابوا قائلين «انما نرجمك لتجديفك ولانك تنوهم نفسك إلها وانت انسان ، ولا نرجمك لاعمالك الصالحة» . وهو يصر مستندا الى (المزمور الثاني والثمانين) بأن الوهيتهم هي جزء من دينهم بتأكيد ذلك من الله نفسه فلا يمكن ان يكون ما يسندون اليه كفرا وتجديفا ذلك الذي رضي عليه (الآب) وأرسله الى هذا العالم ليبشر بقوله (انا هو ابن الله) الا انهم لا يقبلون بهذا ، ولا يعيرون حججه أذانا صاغية . فلم ير بدا من الهروب تخلصا من ثورتهم عليه (١) . وهنا ينتاب المسألة غموض بالفرق الذي استحدثه يسوع بينه وبين الناس الآخرين . فهو يقول : ان كنتم انتم آلهة فانا اذن إله من باب اولى ويوحنا هو الذي ينحله هذا القول كما يعزو اليه قوله «انا نور العالم» ويثبت يوحنا بصورة خاصة أهمية هذا النثار الذي التقطه لانه اعظم اهتماما بوطن خاص به حيث المسوت لا يدرك الناس ، وحيث يصنعون من المعجزات ما يفوق صنيع يسوع نفسه ! وهو نسي الحقيقة يجعل يسوع وكأنه يعد البشر بهذا وعدا صريحا لا مرد له . وأخيرا يؤدي به الامر الى التعريض الجريء بأنه هو يوحنا ازلي الجسد خالد الحياة . مع هذا تراه لا يسقط الاقوال الهامة

-
- «فلتحمر الفقير ومن لا اب له .
 - فلتنك عادلا للمحتاجين والمنكوبين .
 - فلتنقذ الفقراء والمحتاجين .
 - ولتبعدهم من الشرير
 - قلت انكم آلهة ، وكلكم اولاد العلي» .
 - ١ - يوحنا : ف ه وف ٨ .

كافة . ومهما كانت هذه الاقوال مناقضة للعقيدة التي يهدف اليها بترو و معرفة ، فانها تجتذب فبه الغريزة التي تكمن وراء الثقافة والتهديب فتجعله يحشرها حشرا كالطفل الذي يلصق نجوما ذهبية براقه في ثوب دمية تمثل ملاكا . وهو لا يذكر خبرا عن (المعراج) وتنتهي روايته تاركا يسوع وهو عائد الى الحياة ليظهر بين آونة وأخرى متراثيا لتلاميذه . وفي احدى تلسك المناسبات ، نراه يصف معجزة «تكاثر السمك» وهي المعجزة التي وصفها لوقا في نهاية الفترة الاولى من حياة المسيح عند دعوته ابني زبدي .

يوحنا يتفق حول المحاكمة والصلب

يتابع يوحنا خطته في اظهار براعة يسوع كمناقش ومجادل فيجعل دوره اثناء المحاكمة اقل سلبية واكثر ايجابية . الا انه يقدم الرواية نفسها للواقعة ولا يختلف عن الانجيليين الباقين في جوهرها . وهكذا لا تعن له قط المسألة التي تعن لكسل قارئ عصري كما لم تعن لمتى او لوقا او مرقس من قبله . تلك المسألة هي : لِمَ لم يدافع يسوع عن نفسه ويجعل الناس ينقلونه من يد عظيم الكهنة ؟ لقد كان ذا شعبية واسعة بحيث لم يجرؤ احد على منعه من طرد الصيارفة ، خارج الهيكل ، او ان يعتقل بسبب عمله هذا . وان عليهم - عندما اعتقلوا فيما بعد ، ان يقوموا بمهمتهم في غلس من الليل وفي بستان موحش . وكان بوسعه ان يجادلهم كما فعل كثيرا في الهيكل واجدا نفسه امام شريعة اليهود وشريعة قيصر في آن واحد، وانه ليملك فعلا القوة البشرية التي تاتمر بأمره وتقف رهن اشارته ليدعم بها حججه العقلية فكل ما كان مطلوباً منه هو ان يلقي خطبة يلم بها شعث اتباعه ويحشدهم . وهو كما نعلم لم يكن مكوم الفم . سيكون جواب

الانجيليين : ان كل هذه الحجج والفروض لا طائل فيها ، اذ لو
 رغب يسوع في انقاذ نفسه وتجنّبها هذه المتاعب والآلام كافة
 لفعل ، بقبوله الاقتراح الذي صورّه يوحنا ، وأعني به ان يلقي
 معتقله ارضا ويظهر قوته في عمل المعجزات . ولو انك سألت
 يوحنا اذن لماذا تركهم بعد ذلك واقفين على أرجلهم ليعذبسوه
 ويقتلوه ؟ فانه يجيبك قائلا : هذا جزء من قضاء الله ، فقد نساءت
 ارادته ان يقتل ويدفن ليقوم ويبعث حيا . وان اجتناب هذا
 الامر (المقدّر) سيكون انكارا لارادة (الآب) وهذا هو التفسير
 الظاهري الوحيد . وسواء آمنت مع الانجيليين بان يسوع كان
 بوسعه انقاذ نفسه بأعجوبة ، او انت قلت كعلماني عصري بأنه كان
 يستطيع ان يدافع عن نفسه دفاعا ناجحا ، فالواقع هو الواقع ،
 وظل يسوع يابى ذلك حتى الاخير كما اتفقت عليه الروايات كلها .
 كان عليه ان يموت كما يموت الإله لا ان ينقذ نفسه كأحد
 الامراء (1) . ان الاتفاق حول هذه النقطة هو من الاهمية بمكان
 لان فيها البرهان على ايمان يسوع المطلق باعلانه عن ألوهيته ونفي
 صفة الدجل والكذب والادعاء عنه ، وقبوله الخانع بهذا المصير
 المرعب دون ان يبذل مجهودا لانقاذ نفسه . ليس ثم مشعوذ او
 دجال بلغت به قوة الاعصاب حدا يستطيع معه احتمال التبعات
 والنتائج الناجمة عن ايمانه بأنه سيقوم من القبر ويحيا حياة ثانية،
 بعد ثلاثة ايام من موته . وان نحن قبلنا القصة على علاقتها ، فعلى

١ - (الملاحظة هي للمؤلف) يسوع نفسه يشير الى الزمور الثاني والثمانين
 قائلا: الناس الذين اتهموا الآخرين ظلما وبهتاناً وقبلوا الشر لومن ضمن هؤلاء
 طبعاً كل السكان البيض في الجزر البريطانية وفي شمال الغارة الاميركية دعك
 من الاماكن الاخرى) اولئك الذين حكم عليهم بعبارة «قلت لكم انكم آلهة وكلكم
 اولاد الاله» . لكنكم ستموتون كما يموت البشر وتسقطون كما يسقط الامراء» .

ان تؤمن بهذا وان تؤمن ايضا بان وعده بالمجيء بالمجد وانشاء ملكوته على الارض اثناء حياة معاصريه ومعاشيه ، هو ما كان يعتقد بأنه قادر عليه وما يجب ان ينجزه . وهناك انجيليان يقولان بان اليأس ادركه في آخر فترة من اجنضاره وطفق يعتب على (الله) لانه تركه وتخلي عنه . اما الانجيليان الآخران فيجعلانه يلفظ آخر انفاسه بمحبة كاملة وبايمان قويم غير مزعزع ، بعد نطقه بالعبارة البسيطة «ها قد تم كل شيء» (1) . على ان اربعتهم يشهدون بان ايمانه لم يخنه في لحظاته الاخيرة . وانه قام من بين الاموات بعد ثلاثة ايام . واظن من التجني الشك بان الاربعه جميعهم انما كتبوا اناجيلهم وهم يعتقدون اعتقادا راسخا بان الوعد الثاني سيتحقق ايضا . وانهم هم انفسهم سيظلون احياء حتى يشهدوا مجيئه الثاني .

١ - يوحنا : ف ١٣ . لوقا : ف ٢٢ . مرقس : ف ١٥ . متى : ف ٢٧ .

الفصل السادس

قبول الاناجيل

سيلاحظ اكبر قرائي سنا (وهم لا شك ممن اشغل نفسه بدرجات متفاوتة في الجدل حول امكان قبول الاناجيل كقصص واقعية ام رفضها) اني لم اثر هذه المسألة ولم أحاول اثارتها ، واني قبلت الممكن تصديقه والتعذر تصديقه على علاقتهما وعلى حد سواء . فعلت ذلك لان قابلية النصديق هي حالة نفسية ذاتية كما يظهر ذلك بوضوح تطور العقيدة الدينية . تلك العقيدة التي لا تعتمد على الادلة والعقل . فهناك ادلة على حصول معجزات قدر ما يوجد ادلة على حصول معركة واترلو وعلى مرور فيلق من الجنود الروس بانكلترا في العام ١٩١٤ وهم في طريقهم الى الحرب على الجبهة الغربية . واسباب الاعتقاد بمقتل (بومبي) شبيهة بأسباب الايمان بقيامة لعازر فكلا الحادئين صدقهما وانكرهما اناس يتساوى ذكاؤهم . نحن لا نستطيع تفسير

المعجزات كظاهرة مادية وها هي ذي تكتنفنا من كل جانب . ان الحياة بحد ذاتها هي معجزة المعجزات . والمعجزات بوصفها وقائع تخرق السبيل الاعتيادي الذي سلكه تجربتنا لا يخلو منها يوم واحد فكنيسة (المسيح العلمي) الزاهرة اقيمت على الكثير من هذه المعجزات . ولا احد يؤمن بكل المعجزات ، وكل امرئ يؤمن ببعض منها . وانا لا استطيع ان افسر كيف ان الذين ينكرون وجودا ليسوع يؤمنون ايمانا ثابتا مع هذا بان شكسبير لم يكن الا سيكون (١) . وليس في امكاني ان افسر كيف ان الناس الذين يؤمنون بان الملائكة نزلت وحاربت الى صفنا في معركة مونس وبنان معجزات كثيرة تحدث في لورد ومع هذا يرفضون الايمان بمعجزة سيلان دم القديس جانواريس (٢) فيرفضون الموضوع باعتباره حيلة من حيل الكهنوت . ليس بمقدوري ان افسر كيف ان الناس الذين لا يصدقون رواية متي عن الملوك الثلاثة الذين جاءوا بهدايا نفيسة لمهد يسوع ، يصدقون قصة لوقا عن الرعاة الثلاثة والاسطبل . ليس في مقدوري ان افسر كيف ان الناس الذين نشأوا على الايمان بالتوراة في شكلها الحرفي القديم وبوصفها سجلا صادقا ووحيا منزلا لا ياتي به بطلان ، ثم يرفضون تلك النظرية من بعد : يبدأون برفض العهد العتيق ثم يتخلون عن الايمان بوجود جهنم الكبريتية ، قبل ان يتخلوا عن الاعتقاد (لو خطر ذلك ببالهم) بوجود (جنسة) حفلت بالتيجان والعروش

١ - اشارة الى الادعاء ، الذي لم تثبت صحته ، بان سيكون هو مؤلف مسرحيات شكسبير .

٢ - St. Januarius . وقد اكد لي احد اصدقائي من القسي انه رأى الدم يسيل متدرا في مرار في نابولي فلم استطع التهي الا جابيا صعبا من الفضة . وهو موضوع وجود الرأس !

والقيثارات . لا يمكنني ان افسر كيف ان الناس الذين لا يؤمنون بأي شكل من اشكال المعمودية ومع هذا يؤمنون بال تلقيح ضد الاصابة بالامراض ، ايماننا شبيها بتعصب مستنطقي محاكس النفتيش الصارم . اني مقتنع لو ان بضعة عشر مرتابا وضعوا في عمودين متوازيين - قائمة بالوقائع التي وردت في الاناجيل ، يدرجون في احدهما ما هو قابل للتصديق في عرفهم وما هو ليس قابلا للتصديق ، لرأيت ان الاختلاف ما يلبت ان يبدو في قوائمهم . فالعقيدة بالضبط هي مسألة ذوق .

الموضات في العقيدة

ان مسائل الذوق هي على اغلب الراي مسألة موضاة (مودة) ونحن على وقوف بالاختلاف ما بين موضات العقيدة في القرون الوسطى وموضاتها في العصر الحديث . فمثلا مع اننا كنا اكثر سداجة مما وجدنا عليه الناس في القرون الوسطى ، بتعاوننا مع جماعات كثيرة من السحرة والمشعوذين وقارئى البخت والعجائبين ووسطاء الاتصال بالوئى ومكتشفي اكسير الحياة ومحولى المعادن الى ذهب ومبرئى الاسقام الى درجة قد لا تحلم بها القسرون الوسيطة . ومع هذا فنحن نتناول معجزاتنا بالشكل الذي يقنع عقلية القرون الوسيطة . كانت الاعداد الحسابية تستهوي عقول القرون الوسيطة كما تستهويننا الآن لصعوبة معالجة امرها وفك طلاسمها ولأن احدق الحاسبين النيوتنيين واللبنتزيين يقفون في صف اعظم الرجال . هناك اعداد معينة شائعة استهوت عقلية القرون الوسيطة كعدد ٧ مثلا . ربما لانه وتري ، وربما لان العالم قد خلق في غضون سبعة ايام ، او لوجود سبع انجم في مجموعة (الدب الاكبر) ولعشرات اخرى من الاسباب كانوا مستعدين للاعتقاد

بأي شيء فيه سبعة أو مضاعفاتها . خذ مثلا الخطايا الميئسة السبع وسيوف الحزن السبعة في قلب العذراء ، وإبطال المسيحية السبعة فكلها تبدو أشياء واضحة معقولة مسلما بها لمجرد أنها سبعة ! والعكس هو الصحيح بالنسبة لنا . فعدد ٧ عندنا هو رمز الوهم والتعوذة . ونحن لا نعتقد بما يقل عن الملايين ! ان طبيب القرون الوسطى ينال ثقة مريضه عندما يقول له ان احشاءه تنهشها سبع دودات في حين ان تشخيصا كهذا يقضي على سمعة طبيب عصرنا : وطبيب عصرنا يقول لمريضه انه عليل لان كل قطرة من دمه تعج بملايين الجراثيم ، ولا يسع المريض الا ان يؤمن بقوله فورا ، دون جدال او احتجاج . ولو ان اسقفا من الاساقفة قال لوليم الفاتح (١) ان بُعد الشمس عن الأرض ٧٧ ميلا لصدفه ، لا احتراماً للدين فحسب بل لانه كان سيتعمر فضلا عن هذا ، بأن سبعة وسبعين ميلا هي المسافة الصحيحة المعقولة . والقيصر الألماني الحالي الذي لا تزيد معرفته بالموضوع عن معرفة وليسم الفاتح كان سيرسل هذا الاسقف الى مستشفى الامراض العقلية . على انه كما اعتقد يقبل دون ما تردد تخميننا يبلغ اثنين وتسعين مليون ميل وتسعة اعشار المليون او ايا كان من الارقسام الضخمة (٢) .

المعقول والواقع

عليّ هنا ان اذكرك بأن قابلية التصديق فينا ، يجب الا تقاس

١ - وليم الاول ملك انكلترا (١٠٢٧ - ١٠٨٧) .

٢ - البعد الذي قدره الفلكيون والرياضيون . وهو اليوم مقبول علميا .

بحقيقة الاشياء والتي تؤمن بها . لم يكن الناس سدجا عندما آمنوا بأن الارض مسطحة . فقد كانوا في الواقع يستخدمون البديهيات فاذا سئلوا اقامة البرهان على استواء الارض قالوا بكل بساطة : «الا انظر اليها ! » وأولئك الذين يرفضون الاعتقاد بكرويتها ، انما يتعاطون (شكوكية) ناجمة . ان رجل العصر الذي يعتقد بكروية الارض ، هو في منتهى السداجة . فالرجال الذين يعتقدون باستوائها يدفعونه الى الهياج والعنف اثناء الجدل في المسألة ، عندما يفهمون ما يرونه حقا . انما اذا واجهت مثل هذا الانسان بنظرية مؤداها ان الارض اسطوانية الهيئة او حلقيتها ، او هي على شكل زجاجة الساعة ، فسيرتبك ويفلت زمام الامر منه . قد يكون ما يؤمن به صحيحا لكن ليس هذا سبب ايمانه به ، انه يؤمن لان المسألة تستهوي خياله بصورة ما ، يصعب عليه تفسيرها . لو سألته لماذا يعتقد بأن الشمس تبعد بضعة وتسعين مليون ميل عن الارض ؟ فاما سيكون الجواب اعترافه بجهله ، واما سيقول ان نيوتن برهن على صحة تلك المسافة الا انه لم يقرأ تلك الرسالة التي برهن بها هذا العالم على الامر . بل هو لا يدري ان الرسالة كتبت باللاتينية . ولو انك الحفت على بروتستانتني من ايرلندا الشمالية بالاجابة على هذا السؤال : لماذا يعتبر نيوتن مرجعا ثقة وبعضه من الخطأ . ولماذا يرى القديس توماس الاكوينى (1) او البابا من الكاذبين المتعلقين بالاوهم اللذين سيحظى برؤيتهما بعد موته : هو في موضع ما من الجنة ، وهما يشويان شيئا في النار الابدية ! او لو سألتني لماذا اضع موضع الاهتمام الجددي تحديد الكولونيل سر آلروث رايت عدد الجرائم السبحية التي يحتويها حجم معين من مصل الدم ؟ في حين لا يسعني غير

1 - St. Thomas Aquinas (1227 - 1274) اعظم اللاهوتيين الكاثوليك .

الضحك مع التخمينات الغابرة. الاولى لعدد الملائكة الذي يمكن ان يقف على رأس ابرة ! ليس تمّ جواب معقول استطيع الادلاء به . الا ان السابوعات والملائكة قد بطلت موزتها بعض الشيء . وان البليونات والجرائم السبحية هي آخر مودة . اني لا استطيع ان اخبرك حقا ، لماذا كان يكون (1) ومونتين (2) وسرفاننس (3) مودة شائعة من ناحية الثقة او عدم الثقة بأقوالهم ، مودة تختلف اختلافًا بيثنا عن مسودة المحترم بيده بايرز بلاومان (5) والفلاسفة الالهيين من مدرسة الاكوييني - ارسطوطاليس الذين لم يكونوا على وجه التاكيد اكثر غباء وكانت الحقائق نفسها مبسوبة امامهم . وبافتراضنا ان قادة الفكر هؤلاء قد انجزوا تعليل عقائدهم لانفسهم ، تزداد صعوبة حلّي هذا السؤال : لماذا كانت نتائجهم ومصادرهم تبدو مقنعة لجيل من البشر ، وملحدة غير مقنعة لجيل آخر ، في حين لم يتتبع ايهم الموضوع بالتعليل ومحسض الوقائع لذلك فمن العبث البدء في الخصام مع القارىء حول ما يجب الايمان به من الاناجيل وما يجب الا يؤمن به فمن السخف والعبث محاولة وضع حدود فاصلة اذ ستكون اعتبارية للغاية .

-
- 1 - Francis Bacon (1561 - 1626) فيلسوف انكليزي ورجل دولة .
 - 2 - Montaigne (1533 - 1592) كاتب فرنسي وقاص اساسي النوعه ، تعتبر كتبه من بين اعظم كتب الحكيم والتأملات الفكرية . واسلوبه لا يخلو من نكتة ولهجة مرح .
 - 3 - (1547 - 1616) روائي اسباني ومسرحي اشتهر بروايته دون كيشوت (Don Quixote) .
 - 4 - المحترم (1673 - 1725 م) مؤرخ ومفكر ديني انكليزي .
 - 5 - ملحمه طويلة شعريّة بهذا العنوان « رؤيا باينسرز بلاومان » The Vision of Piers Plowman « نظمتها وليام لانغلند Langland

يخبرنا يوحنا الانجيلي ان يسوع عندما اعلن تفوقه الالهي بصراحة تقديم جسده ودمه ، تركه كثير من تلاميذه حتى انخفض عددهم الى اثني عشر . كثير من القراء اليوم لن يقولوا مثلهم على الصمود هذه المدة الطويلة وسيستسلمون عند اول معجزة . اما الآخرون فانهم يميزون بين انواع المعجزات ، فيقبلون معجزات الشفاء ويرفضون معجزات اطعام الجموع الفقيرة وستكون معجزة السير فوق الماء عند بعضهم مبالغة أسطورية في قابلية العوم تنتهي بانقاذ اعتيادي لحياة بطرس . واما إحياء العازر (١) فستكون تمجيذا مماثلا لمآثرة عادية من مآثر عمليات التنفس الاصطناعي . في حين سيسخر الآخرون منها بوصفها حيلة مدبرة مثل فيها العازر دور التريك . ان بين الرفض الروائي لهذه المعجزات (بوصفها محض خرافات) وبين قبولها على علانها كما قصد الانجيليون منها ، نجد تم ظلالات عديدة من الشك واليقين ، مسن العطف والتهكم ! والمسألة ليست مسألة كونك مسيحيا ام غير مسيحي . فالعربي المسلم قد يقبل حرفيا وبدون اي اعتراض ، اجزاء من القصة التي يتحتم على رئيس اساقفة انكليزي ان يرفضها او يستبعدها . ان كثيرا من الشيوعيين (٢) وهواة الحكمة الهندية ممن لم يدخلوا كنيسة مسيحية الا لفرض سياحي ، ستهز مشاعرهم اجزاء من انجيل يوحنا لا تعني شيئا عند احد من رجال الصناعة الانكليز الورعين الواقعيين . ان كل قارئ

١ - متى : ف ١٤ ويوحنا : ف ١١ .

٢ - اولئك الذين يؤمنون بالعقيدة المسماة بهذا الاسم : Theosophy

وهي مذهب فلسفي ديني ، يفترض وجود الله كجوهر روح كائن في الكون كله وهو مصدر كل حياة وكل صلاح . اما الشر فهو من عمل الشر سبب طمعهم ونهاجتهم على امور الدنيا .

اخذ من التوراه كل ما استطاع اخذه وتقبله . وانا بالمامي إلمامة
سريعة بروايات الانجيل لم افرض على قارئى اى تحديد لا بخصوص
صحتها ولا بخصوص قابلية تصديقها . انى لم اقم بغير إخباره
وتدكيره - وفق ما تتطلبه كل حالة - بما تتحدث لنا هذه الروايات
عن بطلها .

مسيحية التماثيل ومخاطرة تحطيم التماثيل

ينبغي لى ان انبذ الآن هذا السلوك لاقوم بتحويسل اهتمام
القارئء تحويلا جديا ازاء هذه المسألة ، وهي : هل ان ايمان
القرون الوسيطة وراى الميثوديين بالجانب الفدائسي (الخلاصي)
والعجائبي من الانجيل قد خيب ظنوننا كما خيب ظنون قادة الفكر
الحديث ؟ ومتى كان ذلك ؟ واذا كان الامر كذلك ، استخلف اى
شيء بعد هذا من رسالة يسوع . وبعبارة اخرى هللا سنقوم
بالقاء الاناجيل فى قمط الاوراق المهمسة ، او وضعها على رف
القسم الخاص بالروايات الخيالية من مكتبتنا ؟ انى لاتجاسر على
القول باننا سنقدم على هذا خلافا لحالة ذلك الرجل فى لفرز «بنيان»
لما وجد ما عنده يزداد بقدر مالقى منه . وسنتخلص مبدئيا من
عنصر الشرك فى عبادة المسيح بعبادة اخرى من عبادات الايقونات
وبهذا اعني حرفيا تلك العبادة التى تقدم لصوره وتماثيله وللقصص
المعقولة وغير القابلة للتحوير المروية . ان محك ذلك وآية تسلطه
على الفكر هو انك تتكلم وتكتب عن يسوع بوصفه إلها ما زال ذا
فاعلية . فان فزَع امثال هؤلاء العبّاد سيكون اعظم من فسزَع
دون جوان (1) عندما نزل التمثال عن قاعدته وشاطره عشائه .

1 - اشارة الى احد الروايات عن هذه الشخصية الاسطورية . فبعد ان قتل
ابا حبيشه فى مبارزة ، وعلى سبيل المزاح دما تمثالا للقتيل للعشاء معه ، فقبل
التمثال الدعوة ، وبختمها سحبه معه الى جهنم ليلقى جزاء اعماله .

انك قد تنكر ألوهية يسوع ، وقد تشك حتى في وجود شخص بهذا الاسم جاء الى الحياة . قد تنبد المسيحية وتتحول لاعتراف اليهودية او الاسلام او الشنتوية (1) او عبادة النار (2) ، ولن يفعل عبّاد التماثيل اكثر من وضعك في صنف الملاحدة والكفرة وهم منك سباخرون برصانة وهدوء ! ولو تجاسرت فسألت : كيف كان سيبدو وجه يسوع لو حلق شعر ذقنه وازال لحيتسه ، او تساءلت : ما مقياس الحذاء الذي كان يلبسه يا ترى ؟ وهل انه شتم ولعن عندما دخل قدمه مسمار في دكان النجارة . او عندما عجز عن تزيير عروة ردائه وهو في عجلة من امره ؟ وهل فهقه ضاحكا للاجوبة المسكتة التي كان بها يحير عقسول الكهنة حين يحاولون الايقاع به او لجره الى التجديف والزندقة ؟ حتى لو عمدت الى رواية اي جزء من قصة حياته بتعابير عامية مبتذلة اصيلة فانك ستحدث استنكارا وفزعا لا مزيد عليهما بين عبّاد التماثيل . انك ستجعل (الصورة) تخرج من اطارها والتمثال ينزل عن قاعدته والرواية تغدو حقيقة واقعة بكل النتائج التي تفوق المحصر ، المتدفقة من هذه المعجزة المخيفة ، في هذه اللحظة وامثالها فحسب ، ستدرك ان عبدة التماثيل لم يتصوروا المسيح ولو للحظة واحدة ، شخصا حقيقيا او قوة من القوى ، كالكهرباء لا تحتاج الى استحداث ميكانيكية سياسية مناسبة لتطبق على شؤون البشر وتعطي نتائج ثورية .

من هذا ترى ، ان الخطر في مجتمعنا ليس بالكفر وانما الخطر هو بالايمان الاعمى . ففي الوقت الذي ندرك (وهو امر محتمل

١ - الشنتوية هو دين الياپان القديم . ويتلخص بالايمان بأن الظواهر الطبيعية ارواح يمكن ان تنفع او تضر وان الناس اذا صدوها هدتهم الى العمل الصالح .
٢ - يقصد بها المجوسية او الزردشتية .

وقوعه في اي يوم) بأن يسوع ليس تلك الصورة الجامدة الودية التي تخيلتها ايها القاريء الى هذه اللحظة . وانما هو مركز تجمع الاتجاهات لكل الميول الثورية التي تحاربها كل الدول والكنائس المقررة قانونا . وعليكم جميعا عندئذ ان تحتاطوا لانفسكم لانكم نفختم الحياة في الصورة . وقد يعجز الرعاع والسوقة عن تحمل هذا الهول .

ما هو البديل عن برابا

ولكن ينبغي الوقوف في وجه السوقه اذا كان في ذلك انقاذ المدنية ، ولا يحتاج الامر الى حرب كالحرب الحالية (1) للبرهان بأن كلا من (المسيح الايقوني) و(مسيح بولس الرسول) قد فشلوا في تحقيق خلاص المجتمع البشري . ففي الوقت السذي اكتب هذا ، اشيع ان الاتراك يوقعون بالارمن المسيحيين مذبحه لسم سبق لها مثل . لكن اوروبا ليست الآن في وضع تستطيع فيه الاحتجاج . فمسيحيوها يذبح بعضهم بعضا بكل الآلات والادوات التي وضعتها المدنية في متناول يدهم وبالحماسة التي تحدوهم وهم يقتلون الاتراك . ان البرابية منتصرة في كل مكان والنفع الذي تناله من انتصارها ، هو انها تفقدنا جميعا الى الانتجار المصحوب بمظاهر بطولية واكاذيب مدوية . والآن فان امثالي من الذين يرون النظام الاجتماعي البرابي نظاما فاشلا وان (قسوة الحياة) (2) او ما شئت ان تسميها ، لا يمكن ان يعترها اي وهن

١ - اي الحرب العالمية الاولى ١٩١٤ - ١٩١٨ .

٢ - وهي الفكرة التي استخدمها شو لفلسفته واطلق عليها تعبير Life Force يصفها بالقوة الدافعة ، او الروح ذات القاعلية في النساء والرجال ، فتدفع افضلهم الى التطور والتقدم توصلوا الى مخلوق انساني اكثر نبلا .

او فشل ، بل ستتخطى الانسانية بتوليد نوع ارفع منها ، ان لم نفلح في السيطرة على المشاكل الناشئة من تضاعفنا العددي . هؤلاء ما فتئوا يقولون دوما ان يسوع كان ذا رسالة حقّة وانه شعر بسحر شخصيته وعقيدته وهذا لا يعني انه يجب علينا اليوم ان نحلم بالادعاء بأي قوى خارقة للطبيعة له ، بله اقل كثيرا من القوى العلمية التي تلازم فيلسوفا عصرنا مثقفا او فقيها قانونيا . ولكن عندما نتخلص تماما من المسيحية التي تركز على عقيدة (الخلاص) او حتى عندما نتعامل على المسيح بخصوص علاقته الارادية بالمسيحية الخلاصية وملتزم بدراسة علمية خالصة في الاقتصاد وعلم الاجرام والبايولوجي فسنجد استنتاجاتنا العملية هي بالجواهر عين استنتاجات يسوع نفسه واذ ذلك سيفمرنا الفرح وسيتسجعا ذلك على الاقرار باننا نلحق به ظلما صارخا ، وان هالة نور العلم التي تحيط براسه في الصور المختلفة المعمولة له قد تترجم يوما ما ، بانها هالة نور العلم اكثر مما تترجم بانها اظهار للمشاعر ، او وصمة عار وثنية .

وهكذا تجد العقائد التي ثبتها يسوع هي التالية تقريبا :

- ١ - تخلّص من الملكية الخاصة بالفائتها في ملكية المجموع . وابعده عمل يومك عن امر احتسابه بالاجر النقدي . ان تركت طفلا يجوع فانك تترك (الله) جائعا . انبذ كل قلق بخصوص طعامنهار غد وليلة غد، لانك لا تستطيع عبادة سيدك : الله ومأمون (١) .
- ٢ - ان ملكوت السماء هو في نفسك وانت هو ابن الله والله هو ابن الانسان . الله هو روح تجب عبادته بالروح وبالحق . وليس هو (جنتلمانا) كبير السن يمكن الاستجداء منه ورشوته .

١ - كلمة آرامية تدل على الفنى . وتشمعل اليوم للاشارة الى اله المال الخيالي .

نحن اعضاء بعضنا عضو لبعض ، لذلك لا يمكن ان تجرح جارك
او تعينه من دون ان تجرح نفسك او تعينها . الله هو ابوك وانت
هنا لاجل ان تقوم بعمل الله . وانت وابوك واحد .
٣ - تخلص من المحاكم والقضاء والعقاب والشار والانتقام .
احب جارك كما تحب نفسك لانه جزء منك واحب اعدائك لانهم
جيرائك .

٤ - تخلص من قيود الاسرة . وكل ام تلقاها هي ام لك قدر
ما هي ام لك تلك التي حملتك في بطنها . وكل رجل تلقاه هو اخ
لك بقدر ما هو اخوك ذلك الذي حملته امك جنينا بعدك . لا تبدد
اوقاتك في تسييع جنازات الموتى من آلك واصحابك ولا تجزع
على اقربائك ، فلتكن مهتما بالحياة ولا تلق بالآلى الموت ، ففي
البحر من السمك الجيد اكثر مما خرج منه واحسن . وفي ملكوت
السماء الذي هو في نفسك (كما اسلفنا) لا يوجد زواج ولا
زوجات ، لانك لا تستطيع ان توقف حياتك على عبادة إلهين: الله،
وزوجك .

هذه مقترحات في غاية الاهمية ، واهميتها تزداد يوما بعد
يوم طالما يدفعا العلم والتجربة الى التفكير فيها تفكيرا صالحا
باطراد متزايد . اننا لنضيع وقتنا في تقديمها الا اذا اقمنا بناءها
بشكل معقول . ويجب علينا ان نفترض ايضا ان الرجل الذي
تبين طريقه خلال مثل هذه الكتلة من العاطفة الشعبية والوهم التي
تقف بيننا وبين شعور تقييم حقيقي لمثل هذه التعاليم ، كان عليما
تمام العلم بكل الاعتراضات التي تبدو لسماير بورصة متوسط
الحال في اول خمس دقائق . صحيح ان العالم يحكم الى درجة
كبيرة بتلك الاعتبارات التي تلوح لسماير البورصة في اول خمس
دقائق ، ولكن لما أضت الدنيا سيئة الحكم (لهذا السبب) السى
درجة لم يعد اولئك الذين يعرفون الحقيقة ، بقادرين على احتمال
العيش فيها الا بصعوبة . فان اعتراض سماير بورصة متوسط

الحال ، يتضمن في ذاته (قضية مبدئية Prima Facie لاي اصلاح اجتماعي .

تحويل المسيحية الى ميدان التطبيق الحديث

والامر سواء . . وعلينا بترتب تحويل وصايا يسوع ومقترحاته الخلقية الى ميدان التطبيق العملي الحديث . لو سألنا سمسار البورصة هذا ان يعمل طبق ما نصح به يسوع تلاميذه فسيجبنا (وهو مصيب) : انكم تنصحوني بأن اعود متشردا افاقا ! ولو حضضنا غنيا على بيع كل ما يملك ويعطيه للفقراء ، فسيعلمنا بأن مثل هذه العملية متعذرة . اذ لو باع اسهمه وأراضيه ، فيستمر شاريها في تلك الاعمال الجائرة التي يظلم بها الفقراء . ولو عمل الاغنياء قاطبة بهذه النصيحة في وقت واحد فستنخفض اسعار السندات الى الصفر وتصبح الاراضي غير قابلة البيع . ولو باع رجل ما يملكه ، وألقى المال الى ساكني الاحياء الفقيرة فالنتيجة الوحيدة ستكون اضافة نفسه ومن يعيلهم الى قائمة الفقراء ، بينما لا يكون في عمله فائدة للفقراء اكثر من ان يتيح لقله منهم فرصة لاقامة حفلة سكر معرودة ! ويجب والحالة هذه ان لا يغيب عن بالنا ما جرى في ايام يسوع وفي العصور التي تلت موته وكيف زادت ايام الفترتين ظلما على ظلام حتى بلغ أوجه (باستثناء فجر عصر الاصلاح الديني والنهضة الاوربية الزائف القصير الامد) بليل التجارة في القرن التاسع عشر ، وقتما ساد الاعتقاد بأنك لا تستطيع ان تصلح من حال الناس بقانون يصدره البرلمان، تراك في ايامنا هذه ، شديد الثقة بأنك لا تستطيع تحسين اوضاعهم بطريق أخرى غير هذه الطريق . وان الرجل الافضل من ابناء جلدته حالا هو مصدر ازعاج وضرر ، وان الغني يجب ان يبيع لا نفسه وحدها بل نفوس كل طبقتة وان ذلك لا يمكن ان يتم الا

عن طريق وزير المالية . وان التلميذ لا يمكن ان يحصل على خبزه بدون مال يدفعه ، الى ان يوجد خبز مجاني للجميع ، وهسهسا يتطلب تنظيما بلديا مدعما بالرسوم والضرائب . ان كون الانسان الواحد عضوا من الانسان الآخر يعني هذا : رجل واحد = صوتا واحدا . امرأة واحدة = صوتا واحدا ، اقتراعا واحدا ، دخولا متساوية الخ . . . من الاعمال السياسية . حتى في سورية على عهد يسوع لم يكن بالوسع استيعاب تعاليمه وتفهمها عن طريق سلسلة من انفجارات صلاح واستقامة مستقلة . فظهر ذلك في وحدات منفصلة من المجتمعات البشرية ، ولم يكن بوسع اورشليم نفسها ان تفعل ما لا يمكن مجتمع قروي ان ينهض به . وما لم يكن بوسع روبنسن كروزو نفسه ان يقدم عليه لو لم يمل عليه وجدانه وواجب الطبيعة الصارم قاعدة عامة جاهد في سبيلها نصف دزينة من امثال روبنسن كروزو للظفر بتعويضات لم يرضوا عنها رضاء تاما . فما لم يكن تحقيقه ممكنا في اورشليم او في خـوان قرنانديو (1) ، لا يمكن انجازه في لندن ونيويورك وباريس وبرلين . وعلى اية حال ، ينبغي لنا ان نترك المسيحية خارج نطاق امور البشر الحياتية صالحة كانت هذه الديانة ام طالحة ، خاطئة ام مصيبة ، حتى تصير قابلة التطبيق عملا ، بعد استحداث مستنبطات سياسية معقدة فيها . واذا زعمنا ان واعظا مسن الصحراء تحت حكم بيلاطس البنطي او بيلاطس نفسه بما يملك من الحكمة الرومانية يتمكنان من وضع نظام سياسي عملي من العقيدة المسيحية او اي نظام اخلاقي آخر غيرها لاجل تطبيقه في عالم القرن العشرين ، اذا زعمنا هذا فاننا نبد المسيحية بأشد مما

١ - جزيرة في المحيط الهادي عاش فيها البحار الاسكتلندي الكسانسدر سلكريك وحيدا من ١٧٠٤ الى ١٧٠٩ ، ومن حياته هذه استوحى دانييل دفو قصته روبنسن كروزو .

نُبذها بيرون وكل مضطئديها الأحرين الذين اصابوا نجاحا في عملهم هذا . ان الورع والتعى الشخصى . مضافا الى واقع انك لا تستطيع ان تصلح من اخلاق الناس بقانون يستتثه البرلمان . انما هما وسيلتا دفاع فعالة يلجأ اليها الناس الذين يقرون بارادة منهم او بحالة لاشعورية لكي لا يدعوا يسوع او اي مصلح آخر يتدخل في امر ما يملكونه من مال ومقننى .

الفصل المتابع

الشيوعية الجديدة

والآن فلنر ماذا تقول التجربة الحديثة وعلم الاجتماع في اقتراح يسوع وجوب التخلص من مقتناتك واعتباره ملكا مشاعا . ان المرء ليسمع فرّيسي اورشليم وجرزيسن وبيت صيدا (1) يقولون : لو قمت يا صاح بتقسيم ثروة اليهودية قسمة مساواة في هذا اليوم بالذات فستجد قبل نهاية السنة معدمين واغنياء ايضا . ستجد فقرا وثراء مثلما تجده اليوم ، لان وجود المكسال والمثابر ، والمقتر والمبدر ، والسكير والعزوف عن الخمر ، هو امر مفروغ منه . وكما اصبحت كيد الحقيقة بقولك «سيكون الفقراء معنا دائما» وبوسعنا ان نسمع الجواب «الويل لكم ايها الكاذبون المراءون ، ها انتم في هذا اليوم بالذات ، قد قسمتم ثروة البلاد

١ - جرّدين او كورزير هي مدينة قريبة من بحيرة طبرية لم يبق منها الان اي اثر ، و(بيت صيدا) كانت بلدة على شاطئ البحيرة في الشمال الشرقي .

بأنفسكم . كما يجب ان يسم ذلك يوميا . (ذلك لان الانسان لا يمكن ان يعيش بصورة أخرى غير العيش من اليد الى الفم وهو عيش الكفاف . ولا يمكن للبيض والسماك ان يحملا الى الابد) . ومع هذا فقد خلت قسمتكم اياها من كل عدالة ؛ وكذلك قلم ان ثانيي لكم بالابقاء على الفقراء بينكم على الدوام ، بأنه قانون يسري عليكم مستخلصين بان هذا الشر مؤبد باق ، وان رائحته الكريهة ستظل تزكم انف الله الى الابد الآبد . ولذلك يخيل لي ان العازر سيجدكم قريبين من الاغنياء في جهنم » . ان (الراسمالية الحديثة) كانت قد تولت القضاء على الاحتجاجات الاولى حول التفاوت فسي الثروات . والفريسيون انفسهم كانوا قد نظموا (شيوعيسة رأس المال) فالملكية الشائعة هو الامر اليومي الواجب اتباعه ، وكل محاولة للعودة الى الملكيات الفردية كأساس لانتاجنا قد تؤدي الى تدمير مدنيتنا تدميرا كاملا يفوق ما نخلّفه من الدمار عشر ثورات . انك لا تستطيع ان تقوم بفلاحة حقول برمتها في يومنا هذا الا بعد ان يصير الفلاح تعاونيا . الا فلتراقق مثلا ، حامل أسهم السي سكة الحديد التي يملك فيها أسهمه ولتطلب منه ان يحدد لك مسافة معينة من تلك السكة يعود له شخصا ، او ان يشير الى المقعد الذي يملكه من عربة القطار ، او ان يدلك على عتلة معينة من تلك القاطرة لا احد ينازعه في ملكيتها . ولسوف تراه يفر منك فرار السليم من المجدوب . وان انت حاولت كحَننيا وسيفيرة (١) الاحتفاظ بحانوتك الصغير او ما اليه وتحبسه عن الملكية العامة الموحدة المتمثلة بالترست او الكومباين او الكارتيل (٢) فسان

١ - اعمال الرسل ف ٥ . دعا عليهما الرسول بطرس وقتلها لاختافها مالهما عن الجماعة .

٢ - Trust, Combine, Kartel ، مصطلحات اقتصادية تطلق باختلاف طفيف في ما بينها على مجموعة من الصناعيين او الماليين ، يتفقون

الترست سيصعقك ويجمدك ويوثق كتافك وثاقا محكما ، وبالاخير
يوجه اليك ضربة صناعية قاتلة كضربة الرسول بطرس القاضية !
لم يعد ثم اي مجال بعد الآن لطرح سؤال عملي حول شيوعية
الانتاج ، اعني حول التقسيم اليومي له ، وهو اول ضرورة من
ضرورات المجتمع المنظم .

اعادة التوزيع

واليوم لا تدرك حاجة يسوع لاقتناع اي شخص بأن نظام
التوزيع عندنا هو على اعظم درجة من الخطأ واشنع . فلدينا
اطفالنا من اصحاب الملايين . ولدينا الى جانبهم معدمون اذنتهم
حياة البؤس المتواصل وقت الشقاء في عضدهم . يموت شخص
واحد من كل خمسة نزلاء دار شغل الفقراء (1) ومسنشفي
حكومي او بيمارستان . اما في المدن امثال لندن فالنسبة تصعد
الى واحد من كل اثنين ! وطبيعي ان التوزيع بلغ من الظلم المريع
ما بات معه ضروريا ان يتملى ويفرض فرضا بالعنف والقوة وبكل
ما تتصور من بساطة فان اعترضت حوربت وقنضي عليك . وان
قاومت اشبعت ضربا وسجنت . وهذه العملية يطلق عليها العبارة

ما بينهم بحسب شروط معينة وبالنظر الى بضاعة واحدة او بضائع مختلفة
سل فيما بينها اتصالا انتاجيا او استهلاكيا - لتحديد الانتاج وتوحيد الاسعار
بحديد مناطق البيع ، واتخاذ التدابير لمعاوية شركات منتجة لنفس تلسك
لبضاعة ، لغرض الاحتكار والقضاء على المنافسة التجارية .
1 - بموجب (تالون الفقير) الملقى الآن في الكلترا ، كان يوضع العجزة وكبار
السن والناطلون في مؤسسات حكومية تدعى (دار الشغل) لضمان اسكانهم
واطعامهم .

اللطفية «اشاعة النظام والقانون» ! لا يمكن للتعاون ان يبلغ اكثر من هذا انتظاما . ففي زمننا هذا لم يعد واحد من العارفين بأرقام التوزيع الحقيقية يستطيع الدفاع عنها . وقد يتردد أشد المحافظين البريطانيين تعصبا في القول بأن مليكة لا بد وان يكون اشد فقرا بكثير من مستر روكفلر او ان يعلن النفوق الاخلاقي لهنة الدعارة على مهنة شغل الابرة ، لان الربح من المهنة الاولى اكثر من ربح المهنة الثانية . ان الحاجة الى عملية اعادة توزيع جذرية للدخل في كل البلاد المتعدنة ، هي حاجة واضحة لا يماري فيها احد ومسلم بها عموما بقدر ما كانت وسائل الوقاية من الامراض وحفظ الصحة واضحة وضرورتها مسلم بها عموما .

افى امكان الصانع ان يملك ؟

ما ان نأتي الى مسألة تحديد النسب التي يجب ان تبنى على اساسها قاعدة اعادة التوزيع حتى يبدأ الجدل . اننا لا نصدق آذاننا ويعترينا الدهول اذ نسمع من يقول بالفكرة السخيفة غير الواقعية ، وهي ان يعطى المرء مثلما يعطى احدهم جائزة حسن السلوك في (مدرسة الاحد) ، لا على اساس ما يكفي لسد خلته واشباع بطنه . تلك الحماسة عقدها راي آخر اقل سخافة واكثر بُعدا عن الواقع ، وهو انه يمكنك ان تخصص لكل شخص جانبا من الدخل القومي محدد بما ينتجه هو او تنتجه هي . ولقد يبدو في نظر الصبي الصغير ان الحداد هو الذي يصنع حدوة الحصان ولذلك يجب ان تكون الحدوة ملكا له . الا ان الحداد يعلم بأن الحدوة لا تعود له وحده ، بل لصاحب الملك ولجايي الضرائب ومحصل الاعشار والناس الذين ابتاع منهم الحديد والسندان والفحم . وهؤلاء لا يبقون له لقمة صغيرة من قيمتها . وهو يدري ان عليه ان يبادل هذه (اللقمة) مع القصاب والخباز وبائع الثياب

بالاشياء التي تتطلبها انسجة جسمه الحية وما يغلفها من بشرة، او يدفع لكل من هؤلاء اكثر من قيمة الكلفة لان هؤلاء الصناع زملاءه مثله لديهم من وجب عليهم ان يسدوا مطالبه من اصحاب ملك وعملاء . فاذا اتضح بأن مثل هذه النماذج القروية البسيطة المباشرة للانتاج الفردي الظاهري ، هي في الواقع (بعد تأمل وفحص آني) من اسباب نظام اجتماعي معين ، فما الذي يقال عن مثل هذه المنتجات ان كانت على شكل دارعات بحرية وإبر ودبابيس واقلام فولاذية تنتجها المصانع ؟ ان أمسك الله دارعة بيد ، وقلما فولاذيا بيد وسأل ايوب عن صنعها ولمن يجب ان تعود ملكيتهما بموجب حق الصانع ، فلا بد ان ايوب سيحك رأسه الماكر بكسرة من الفخار ولا ينطق بحرف ، الا اذا خطر له ان يقول بان الله هو الصانع الاول وان كل ما من حقنا ان نعمل بالمنتوج هو اطعام حملانه وخرافه منه .

اوقات العمل

لذلك فالبديل الذي اتخذه الصانع عن نصيحة يسوع لا يجديه فتىلا ، وليس ثم ما يمكن عمله من هذه الجهة ، الا ان تدفع للعامل بحسب الوقت الذي يستغرقه العمل . اي لكذا من الساعة او اليوم او الاسبوع او السنة . ولكن كم ؟ عندما يعن هذا السؤال للخاطر فالجواب الوحيد الذي تلقاه له هو : «بالاقل مما يضطره الجوع الى قبوله» وهذا ما يواجهنا بالنتائج المضحكة التي المعنا اليها آنفا ، فضلا عن الشدوذ الذي يتجلى في ذهاب النصيب الاوفر الى الذين لا يشتغلون مطلقا ، والنصيب الاقل لمن يقع عليه النصيب الاكبر من العمل . ففي انكلترا مثلا تدخلت تسعة اعشار الثروة القومية جيوب عشر السكان .

الحلم الذي يقضي بالتوزيع بحسب الاستحقاق

و ضد ما بيناه آنفا ، يأتي احنجاج نظريي (مدرسة الاحد) فتراهم يقولون : لماذا لا نوزع حسب الاستحقاق ؟ والمرء هنا يتخيّل يسوع بابتسامة عريضة عبر القرون المتعاقبة ، في حين كانت محاولة التهرب من تعاليمه تمنى بالنكبات والاختفاقات ، ابتسامة تتسع وتزداد عمقا لتصبح ضحكة تامة ! هناك مشروع اعظم بلاهة من مشروع تحديد الفضيلة بالمال . وفي هذا الموقف علينا ان نفترض ان (معهد الاقتصاد) في لندن وضع عددا من الاسئلة الامتحانية على النحو الآتي :

« اذا اعتبرنا القيمة النقدية لفضائل يسوع مائة ، ولفضائل يهوذا الاسخريوطي (1) صفرا ، فاعط النسبة الرقمية الصحيحة لفضائل كل من : 1- بيلاطس يونطيوس ، 2- صاحب حظسيرة الخنازير في بلاد الجديين (2) ، 3- الارملة التي وضعت في صندوق الصدقة فلسا واحدا (3) ، 4- مستر هوريشيسو بوغلي (4) ، 5- شكسبير ، 6- مستر جاك جونسون (5) ، 7- السر اسحق نيوتن ، 8- بالسترينا (6) ، 9- اوفنباخ (7) ،

1 - احد الاثني عشر وهو الذي سلم يسوع الى معتقيه لقاء ثلاثين فظنة فضة .

2 - جنوب شرقي بحيرة طبرية بالقرب من (عيون الحمة) .

3 - مرقس : ف 12 .

4 - صحفي انكليزي ورجل اعمال . سجن خمس سنوات بجريرة احتيال .

5 - ملاكم امريكي ، بطل العالم في الوزن الثقيل من 1908 حتى 1915 .

6 - ملحن ايطالي .

7 - مؤلفا موسيقي فرنسي .

١٠- السر توماس لبتون (١) ، ١١- مستر بول سنكويغاللي (٢) ،
١٢- طبيب أسرتك ، ١٣- فلورنس نايتنجيل ، ١٤- السيدة
سيدونز (٣) ، ١٥- خادمتك المياومة ، ١٦- رئيس اساقفسية
كانتربري ، ١٧- الجلاد الرسمي» .
او ان تقوم بوضع السؤال التالي :

«المرحوم السيد بارني بارناتو (٤) حصل على دخل شرعي
قدره ثلاثة آلاف ضعف مدخول فلاح انكليزي أجير عرف بأخلاقه
الحسنة عموما : عدد الفضائل الرئيسة التي يمتاز بها مستسر
بارناتو هذا ، على الفلاح الاجير بمقدار ثلاثة آلاف مرة . ويثن
بالارقام ، الخسارة التي لحقت بالحضارة عندما آل الامر بالسيد
بارناتو الى اليأس ثم الى الانتحار ، بسبب نقص مدخوله بالثلث
فقط ! » .

ان رأي (مدرسة الاحد) المبني على قاعدة «لكل فرد الدخل
الذي يستحقه» لهو أسخف بكثير من ان يكون جديرا بالمناقشة
يقدر نبذه هاملت نبذا ، قبل ثلاثمائة عام اذ قال «استعمل كل
شخص حسب مؤهلاته ولن ترى احدا ينجو من المقرعة» (٥)

-
- ١ - تاجر بريطاني كسب ثروة طائلة باستحداث بيع الاطعمة الجاهزة .
 - ٢ - مشعوذ وساحر عرف ببراعته الشديدة .
 - ٣ - (١٧٥٥ - ١٨٢١) من اعظم المثلثات الانكليزيات .
 - ٤ - (١٨٥٢ - ١٨٩٧) كان معدما لا يملك شروي نقر ، فاصبح صاحب ملايين من
استغلاله مناجم الالماس في (كمبرلي) بجنوب افريقيا . انتحر بالقاء نفسه من
سفينة كانت مبحرة به الى افريقيا .
 - ٥ - دونك النص من مسرحية هاملت (فصل ٢ ، مشهد ١) :

Use every man after his desert, and who should
scape whipping ?

ان يسوع ليبقى صامدا كأي رجل واقعي عملي ، ونحن ! نقف هدفا مكشوفنا كالحمقى والرعاء ، والواهمين غير البعيدين كثيرا عن الواقعية . فى اللحظة التي تحاول ان تحوّل فكرة (مدرسة الاحد) الى ارقام تجد انها ستبلغ بك الى مشروع عقيم هو «الدفع على اساس الوقت» وسنقرا فى ورقة اختبارك : ان وقت يسوع لا يسوى شيئا (كان يشكو من عدم وجود موضع يسند اليه راسه فى حين كانت للشعالب او جرنها وللطيور اعشاشها) (١) فلنقل ان وقت الدكتور كريسن (٢) يسوى ثلاثمائة وخمسين باونسا سنويا (٣) انتقد هذه الصيفة . وان شككت فسي عدالتها فيتن بالباونات والدولارات والفرنكات والماركات ، كم يجب ان تبلغ اجورها الزمنية النسبية . قد تكون اجابتك كالاتي : ان المسألة فى منتهى قلة الذوق ، وانك تستنكف عن الجواب . غير انك لا تقوى على الاعتراض اذا سئلت كم دقيقة من وقت مجلد كنب تسوى ساعتان من وقت فلكي ؟

التوزيع الحيوي

انك بالاخير مرغم على طرح السؤال الذي كان يجدر بك طرحه

١ - متى : ف ٨ .

٢ - طبيب انكليزي نقل فيه حكم الموت شتقا بنهمة قتله امراته السليطة اللسان .

٣ - لا شك ان شو لم يكن ينتحب امتلته من هذه الاسماء بصورة اعتباطية وانما كان له غرضه الخاص ويتضح ذلك من الدائرة الواسعة التي تضم هؤلاء الاشخاص المختلفي المشارب والاحوال والجنسيات والازمان ولذلك حاولنا جهدنا فى ان نقدم للقارئ العربي تعريفا بكل شخص ليتبين رأي المؤلف وهدفه .

من البداية وهو «الاي سبب تعطي المرء دخلا؟» من الواضح انك تعطيه دخلا لتبقيه حيا . ولما كان جليا بان الشرط الاول الذي يجب ان يتوفر ليبقى حيا غير مستعبد من شخص آخر ، هو ان يقوم بانتاج ما يعادل تكاليف بقائه حيا . ولذلك كان لنا ملء الحق في ارقامه على الامتناع عن البطالة ولنا ان نستعمل اية وسيلة نرتأيها لنرغمه على الامتناع عن القتل والحرق والتزوير او اية جريمة اخرى . ان اسخف ما يمكن عمله معه هو ان لا نعمل ! اعني ان نكون في تعاملنا معه عاطلين مكسالين غلاظا بقدر ما يكون هو في تعامله معنا . حتى لو ضمنا له عملا بدلا من بنائنا كسل النظام الصناعي على موجات متعاقبة من العمل المتنافس المنهك بما يعقبها من مستنقعات بطالة كما نحن عليه الآن فعليتنا ان ننكر عليه انكارا باتا البديل لعدم قيامه بالعمل . لان ذلك سيؤدي به وبأولاده (ان كان معيلا) الى الفقر . ان الفقراء هم سرطان ينخر جسم الثروة العامة ويكلفون اكثر بكثير مما لو اعطسوا رواتب قاعدية كبيرة باعتبارهم فئة ساقطة لا يرجى لها صلاح . كان يسوع اكثر ادراكا من ان يقترح شيئا من هذا القبيل . فقد قال تلاميذه : اعملون لاجل المحبة فسي حين تدعون الآخريين يستضيفونكم ويطعمونكم ويكسونكم محبة بكم او مجانا بدون مقابل» كما نعتبر عنها في ايماننا هذه . ان كل التجارب البشرية وكل مطعم انساني طبيعي فما لم يعد مصطبغا بعد بصففة التجارة ، يشير الى ان هذا ، هو الطريق السوي قال اليونانيون : «إضمن أولا دخلا مستقلا ، ثم مارس الفضيلة» وكلنا يكافح للفوز بدخل مستقل ، وكلنا يعلم بما علم يسوع وهو لو كان علينا ان نهتم بما سنأكل او ما سنشرب غدا فيغدو من المحال ان نفكر في اشياء اسمى من ذيتك الشيشين . اي ان نعيش عيشة اعلى من حيوان الخلد الذي كانت حياته من بدئها حتى خاتمتها ، بحثا مستمرا مجنوننا عن الطعام . والى ان يتم تنظيم المجتمع بشكل

يفدو معه الخوف من افتقاد حاجات الجسد نسيا منسيا كالخوف من الذئاب الذي ساد العواصم المتمدنة - فلن نحظى بحياة اجتماعية كريمة قط . وفي الواقع ان محاسن تسويتنا هذه كلها تكمن في انها تنقل حفنة منا من هذا الخوف . ولكن لما كان الخلاص من الخوف يطبق شر تطبيق وأسخفه ، حتى انه يجعل حفنة من المفضلين طفيليين على الآخرين فهم مبتلون بالتفسخ ، ويبدو ان التفسخ هو العقوبة البيولوجية المحتومة التامة للطفيليين . انهم يشيعون الفساد في الثقافة العامة وفي سياسة الدولة بدل مساهمتهم الجدية فيهما . وان بطالتهم المفرطة لهي مضره بمقدار ما كان كدح الكادحين المفرط مضرا . وعلى كل فالحكمة المستخلصة من هذا واضحة : ان مشكلتي المجتمع المنظم الاساسيتين هما : كيف تنتج في المجتمع حاجيات تكفي كل اعضائه . وكيف تقطع دابر سرقة العاطلين هذه الحاجيات ، اولئك العاطلون الذين يجب عزلهم عزلا تاما ودقيقا ذلك لان حل المشكلة الاولى الظافر الذي حققه مخترعوننا وكيميائيونا واكبه اخفاق حكمانا الدريع في حل المشكلة الثانية . ان التفاؤل في هذه المسألة بالذات ليس الا تعاميا عن الحقيقة . فأماننا جميعا حقيقة الفتسل الثابتة تقف مائلة والناس الوحيدون الذين يتشبثون بالوهم الكسول (وهو امكان ايجاد طريقة توزيع عادلة تعمل من تلقاء نفسها) هم اولئك الذين يفرضون تفسيرا ثوري الطابع ، كتأميم الاراضي الذي يزيد بحد ذاته في ضخامة مشكلة كيفية توزيع نتاج الارض على افراد المجتمع كما هو واضح .

التوزيع العادل

عندما تواجه المشكلة بالاخير ، تجد ان ليس لمسألة نسبة توزيع الدخل القومي الا جواب واحد وهو : يجب ان تكون

ححصنا كلها متساوية . فلقد كانت دائما كذلك وستبقى كذلك .
صحيح ان دخل اللصوص يتفاوت تفاوتا كبيرا بين لص ولص .
كما ينعكس التفاوت ايضا في مداخيل طفيليتهم . ونزول عبقریات
لامعة معينة الى ميدان التجارة ، اعطى مداخيل مباشرة استثنائية
يشوبها الاستغلال . فالاشخاص الذين يعيشون على بدلات ايجار
الارض ورأس المال ، هم اقتصاديا من صنف أولئك اللصوص ذوي
المداخيل المتفاوتة تفاوتا غريبا . على ان تفاوت الدخل من فرد
الى فرد في الكتلة البشرية الهائلة ، هو غير معروف لانه ليس
عمليا بشكل يرثى له ! وكتدبير مجرد لاقتناع نجار ما بأن القاضي
الفلاني هو مخلوق جنبل من طبيئته بحيث كان له الحق في فرض
عقوبة عليه ، يجب ان نعطي النجار مائة باون سنويا والقاضي
خمسة آلاف باون سنويا . ولأن الاجرة التي تدفع لنجار ما هي
اجرة كل النجارين عادة ، فان راتب هذا القاضي هو راتب كل
لقضاة عادة .

طان وخادم السفينة

اذن فلم يعد هناك موضوع للبحث ، او بالاحرى لم يكن تم
موضوع ، الا الاختلاف بين دخول الطبقات . لقد سبق فكان ثم
مساواة اقتصادية فيما بين قباطنة السفن ، ومساواة اقتصادية
فيما بين خدم السفن . فما قول يسوع في هذا ؟ لعله سيقول :
«اذا كان امراضك الوحيد ، ان هدف انتاج القبطان وخادم
السفينة هو نقل شخصك من ليفربول الى نيويورك او بذل الجهد
لابحار اسطول ، او نقل البارود من عبر السفينة الى موضع
المدفع فعندئذ يجب عليك ان لا تدفع اكثر من شلن واحد لخادم
السفينة لقاء كل باون واحد تدفعه للقبطان الذي كلفت خبراته
وتجاربه نفقات اكثر . ولكن لو رغبت زيادة على هذا ، في ان

تفسح للنفسين البشريتين مجالا لتطوير كل قابليتهما ، النفسان اللتان لا يمكننا فصلهما عن القبطان وخادم السفينة (وهما اصل التفرقة فيما بينهما وبين رفاص الماكنة) لتطوير كل ما فيهما من قابلية ، فعندئذ ستجد ان خادم السفينة يكلف اكثر مما يكلف القبطان لان نفل الاول منهما ليس للنفس قدر ما هو شغل القبطان . ومن نم ينبغي لك ان تعظيه بقدر ما تعطى القبطان الا اذا تعمدت ان يكون مخلوقا أدنى منزلة» وفي هذه الحالة كان الاسراع بشنقك افضل ! بوصفك من محبذي مبدأ الاجهاض ، وهذا هو موضوع الجدل الرئيس .

الاعتراضات السياسية والبيولوجية على عدم المساواة

على ان هناك اسبابا اخرى للاعتراض على الترتيب الطبقي للدخل اخذت تتراكم شيئا فوق شيء منذ عهد يسوع . هذا الترتيب نراه في السياسة يهزم كل شكل من اشكال الحكم الا نظام حكم الاقلية الفاسد بحكم الواقع . الديمقراطية في اعلى الجمهوريات الحديثة درجة كديمقراطية فرنسا والولايات المتحدة . مثلا ، هي وهم* وتدجيل . انها تجعل من العدالة والقانون مهزلة . القانون يصبح فهو مجرد اداه لابقاء الفقراء في حالة انقياد واذعان . والمتهمون من العمال يحاكمون لا امام هيئة محلفين تختار من بين زعمائهم وقادتهم بل عن طريق تأمر مستغليهم عليهم . والصحافة هي صحافة الاغنياء ولعنة الفقراء . ومن الخطورة بمكان ان تعلم الناس القراءة . والقسيس يغدو مجرد تكملة للشرطي في آلة حكم يقوم فيها القصر الريفي باضطهاد بيوت القرية . والانكى من هذا كله ان الزواج ينقلب الى مظهر من المظاهر الطبقيه والتنوع اللامحدود في الاختيار الذي تقدمه الطبيعة للشبان اثناء بحثهم عن شريك حياة ضاقت حدوده حتى انحصرت في قبضة يد من

الاشخاص ذوي دخول متشابهة ، والجمال والصحة لا يعودان الا من قبيل احلام الفنانين فحسب واعلانات دجل وشعوذة بدلا من ان تكون من شروط الحياة السوية . المجتمع لم يعد منقسما على نفسه وحسب بل اصبح خرابا ودمارا في كل ناحية من نواحيه بعامل التفاوت وعدم المساواة في الدخل بين الطبقات . وما الاستقرار الذي يجده الآن الا بفضل الكتل الضخمة من الناس التي تقف بين اولئك الذين تساوى دخولهم ..

يسوع الاقتصادي

ولذلك يبدو ان ما يجب علينا ان نستبدىء به هو السراي القائل بان حق الكائن البشري في مدخول ، هو حق مقدس ، حق يتساوى فيه الجميع ، كابتدائنا بالقول ان حق الحياة هو حق مقدس متساو . في الواقع ان الحق الاول هو اعادة تثبيت للحق لثاني انه لمن الجنون ان تسلمني لحبل المتسقة ، لاني قطعت رقبة بامل ميناء بعد ان تشتط وتفسو في معاقبتي لاني تركته يجوع لم ادعه يقوم بتفريغ سفينة اتفق اني كنت مالكا لها . اذ لما كان ضرر الذي يحدثه قطع رقبته اقل بكثير من ضرر بقائه جائعا ، فان المجتمع ذا الادراك الناضج سيحترم قاطع الرقاب ويجله اكثر من احترامه الراسمالي . ان الامر بات على درجة كبيرة مسن الوضوح وفاق الشر حد الاحتمال بحيث ان محاولتنا صفود مراقبي المدنية ان لم يقض عليها كما قضي على المحاولات السابقة فعلينا تنظيم مجتمعنا بشكل يكون معه قادرا على القول لكل امرئ في البلاد : « اطمئن وانعم بالا ولا يشغلك سؤال ماذا ستأكل ؟ او اي شيء ستشرب او من اين ستأتي بالكساء » وعندئذ لن يكون لدينا ذلك الجنس من الرجال الذين يضعون قلوبهم في جيوبهم وفي خزائن اموالهم ويودعونها لدى صرافين مثلما قال يسوع :

«حيثما يكون كنزك هناك يكون قلبك» ولهذا أوصى بأن لا نجعل النقود كنوزا وأوجب علينا ان نتخذ الخطوات اللازمة لنعسود انفسنا على عدم الاكتراث بها مطلقا . وان نحرر قلوبنا ونعدتها لغايات اسمى من جمع المال . وبعبارة اخرى ان نكون جميعا كرماء الخلق شرفاء نهتم برعاية بلادنا ، لان بلادنا نرعانا بدلا من ان نبقى على اولئك السفلة المتاجرين الذين يقدمون على كل شيء وأي شيء في سبيل المال، او ان نبيع انفسنا واجسامنا بالباون والانش بعد تبديدنا نصف يوم ونحن نساوم على السعر . يجب عليك حتى سواء اعتبرت يسوع إلها ام بشرا ان تقر بأنه كان اقتصاديسا وسياسيا من الطراز الاول .

يسوع البايولوجي

وكان ايضا كما سنرى - بايولوجيا من الطراز الاول . لقد اقتضى قرن ونصف قرن من الزمان ليقنعنا الوعاظ التطوريون ابتداء من بوفون وغوتيه حتى بطلر وبرجسون بأننا وأبانا واحد . وانه لما كان ملكوت الله فينا ، فلا حاجة بنا الى السعي بحثا عنه والهناف «ها هو هنا !» ، «ها هو هناك !» وأن (الله) ليس صورة شخص متعال في رداء ابيض كما توضح لنا صورته في كتاب توراة الاسرة . وانما هو روح ، يتقدم من خلالها نحو فيض متزايد من فيوض الحياة . ونحن المصابيح التي يشع منها ضياء الدنيا واننا بمختصر القول آلهة وان كنا نموت كالبشر . وكل هذا هو الآن صحيح لا شائبة فيه بايولوجيا وسايكولوجيسا . وان مجهودات اصحاب مذهب الانتخاب الطبيعي National Selectionists أمثال فايسمان لجعل سنة النشوء والارتقاء مجرد عمل تلقائي ، لم تمس مبدأ يسوع بضرر ، وانه كانت قد اودت باللاهوتيين الذين ادركوا (الله) بوصفه قطبي مغناطيس يجمع اليه البشر والملائكة كما

يجمع اللورد روتشيلد انواع الجاموس والنعام الاسترالي في «تروك» .

المال هو القابلة المولدة للشيوعية العلمية

قد يسأل احد القراء البسطاء هنا ، لماذا لا نلجأ الى الشيوعية كما اشار به علينا الرسل ؟ ان ذلك قد يكون تدبيراً عملياً ممتازاً في قرية الانتاج فيها قاصر على حاجات بسيطة بدائية تعرضها الطبيعة على كل البشر بحد سواء . نحن نعلم ان الناس بحاجة الى خبز واحدة وانهم لا يستطيعون انتظاراً لها ، فهم ينشدونها ويدفعون الثمن . لكن عندما تتقدم المدنية الى الحد الذي تبدأ تنتج سلعا لا يرى المرء نفسه في حاجة ماسة اليها ، وقد لا تكون موضع رغبة او هدف استعمال الا لطائفة معينة من الناس ، فمن الضروري ان يكون الافراد قادرين على شراء اشياء صنعت بناء طلبهم بضمن التكلفة . ان تأمين الخبز للجميع عمل سليم لا عليه لان الجميع يريدون الخبز والجميع يأكلونه . لكن من جهة والسخف ان يؤمن للجميع ميكروسكوبات وابواق ، ليفة وصوالجة البولو وانايب اختبار . لان تسعة اعشار المنتجة ستظل بضاعة باثرة كاسدة لان تسعة اعشار السكان يحتاجون الى هذه الاشياء سيحتجون على تزويدهم بها با مطلقا . ان لدينا آلة ثمينة لا يستغنى عنها تسمى «د» وهي وسيلة تمكن كل فرد من الايصاء بعمل اشياء سه يرضى فيها ويدفع ثمنها خلافاً للاشياء التي لا مناص من استهلاكها ان اراد البقاء حياً . وبالإضافة الى الاشياء التي لة على ان يمتلكها ويستعملها شاء ذلك ام أبى ، كالسيارات ، الوقائية الصحية والجيوش والاساطيل في المجتمعات حيث تعادل اغرب الطلبات لصنع المواد حتى يمكن التكهن بد التي يصل اليها استهلاكها الى اقل درجة من الخطأ .

وبعد قليل من الممارسة ينظر الى الاشتراكية المباشرة (خذ ما تريد دون ان تدفع) كما ينظر اليها شخصيات كتاب «انباء لم ترد من اي مكان» (١) لوليام موريس، لا باعتبارها سهلة التطبيق وحسب، بل اقتصادية للغاية ، والى الحد الذي يُعتبر اليوم من رابع المستحيلات . ان الرياضيين والعازفين والاطباء والبايولوجيين سيحصلون اذ ذاك على الادوات التي يحتاجونها بالسهولة التي يحصلون بها على خبرهم . او كما هو الحال في الوقت الحاضر، ستعبد طرقتهم ونساء شوارعهم وجسورهم بالنور ، ولن يعترض الاصم عندئذ لمساهمته في الانفاق على صنع (السرنايات) (٢) العامة عندما لا يصر العازف على عدم المساهمة في الانفاق على (سماعات الصم) . هناك قضايا معينة (كالراديو) ينخفض عليها الطلب الى مجرد عدد محدود من رجال المختبرات ، فيكون من الضروري ان تساهم حاليا وعلى اية حال ، المجتمعات كافة بها، لان الثمن يفوق طاقة اي فرد عامل . لكن حتى عندما يفسح اقصى المجالات لتوسيع نطاق الشيوعية (مما يبدو اليوم فهو حديث خرافة) (٣) . فستبقى دائما ولفترة طويلة من الزمن الآتي ، نواح من العرض والطلب فيها يحتاج الناس الى استعمال النقود او الى الضمان الشخصي ولاجل ذلك يجب ان تكون لديهم دخول شخصية . ان السفر الى بلد اجنبي هو مثال واضح لذلك . ونحسن ما نزال بعيدين جدا حتى عن الشيوعية القومية (٤) . وربما ترتب علينا

-
- ١ - هو الاسم الذي اخترمه المؤلف لبلاد خيالية ، متالية ادى تطبيق النظام الاشتراكي فيها الى نشر السلام والسعادة بين سكانها .
 - ٢ - السرناي هي آلة موسيقية نفخية من قبيل الناي والمزمار .
 - ٣ - بعد سنتين من هذا القول انفجرت ثورة اكتوبر الاشتراكية في روسيا .
 - ٤ - نطلق (الشيوعية القومية) ناصر على امة او شعب لا اكثر ، وهي اضيق

ان نحقق تقدما كبيرا في (الشيوعية المحلية) ، كان يصبح في وسع رجل من مانشستر السفر الى لندن والبقاء يوما واحدا دون ان يأخذ معه اي مبلغ من المال . ان الشكل العملي الحديث لاشتراكية يسوع هو الآن والحالة هذه ، التوزيع المتساوي لفائض الدخل القومي الذي لا تمتصه الشيوعية البسيطة إلبدائية .

لا تدين !

عند التصدي الى الجريمة والاسرة نجد الفكرة السائدة والتجارب الحديثة لم تلق ضوء جديدا على آراء يسوع . وعندما سنحت لسويقت (1) فرصة تصوير فساد مدينتنا بتنظيم قائمة بتصنيف انواع السفلة والافراد التي تنتجها تلك المدينة ، فانك تراه دوما يعطي (القضاة) موصفا متميزا عن أولئك الذين يحاكمون امامهم . وفي احدى حكايات مستر غلبرت جستر تون (2) تجد البطل قاضيا ينظر في دعوى جنائية ، فيبلغ به شعوره بسخافة ركزه ، وبمدي الشر الكامن في الامور التي تدفعه تلك السخافة الى عملها ، الحد الذي جعله ينسزع طيلسان القضاء فورا ، الخروج الى الدنيا ليحيا حياة انسان شريف بدلا من حياة صنم يظ فليظ القلب . كان ثم ايضا دعوة تتسم بالغباء المجرد عس

طبعا من (الشيوعية الاممية) اما (الشيوعية المحلية) فشو يقصد فيها شيوعية المدينة او القرية او اي مجتمع ضمن الشعب او الامة .

١ - (١٦٦٧ - ١٧٤٥) ناقد انكليزي وتقصي اشهر بكتابه «رحلات غوليفر» وهي حكايات انتقادية سياسية رمزية .

٢ - القصود قصة « مغامرات الميجر براون الهائلة » التي ألفها Gilbert Keith Chesterton (١٨٧٤ - ١٩٣٦) .

الروح عرفت باسم المذهب الجبري تمثل الانسان كائنا ميتا
يُورجحه ذات اليمين وذات الشمال محيطه وظروفه وسابغ
احدائه وما الى ذلك مما يذكرنا بأن هناك حداً معيناً لعدد
«الاطوال» التي يستطيع الانسان اضافتها الى كيانه الجسدي او
الروحي . وانه لمن الغباء بل من القسوة ان تعذب انساناً طوله
خمس اقدام لعجزه عن قطف نمرة من شجرة هي ضمن امكانية
اناس متوسطي القامة . ولقد عرفت شخصياً قضية تتعلق بطفلة
مسكينة عوقبت بالضرب لانها عجزت عن قراءة عقربي الساعة بعد
ان شرح لها عمل ارقام الساعة ودورانها شرحاً مفصلاً ثم تبين
ان العلة في عجزها عن ذلك ، هي اصابتها بقصر البصر ، فتعذر
عليها قراءة الارقام . هذه الصورة هي صورة مطابقة للسخر
والظالم التي يقودنا اليها مبدأ الارادة الحرة التي هي الصنو الغبي
لمبدأ الارادة المسيّرة . واما الفكرة القائلة بأن الانسان يمكن ان
يكون صالحاً وان عليك ان تزوده بحافز اضافي قوي للصالح ،
بأن تعذبه عندما يقدم على عمل سييء فانها سرعان ما ستقلب الى
سخافة ان لم يحصر تطبيقها بالحدود التي وضعتها الطبيعة للضبط
النفسي بالنسبة الى معظمنا . ليس هناك من بإمكانه ان يفترض
ارغام رجل يكره الموسيقى او كان خلواً من المؤهلات الرياضية -
على ضغط كل الحان سمفونيات بيتهوفن او ان يحفظ (تكملة)
مؤلف نيوتن عن التفاضل والتكامل تحت تهديده بعقوبة الموت !

حدود الارادة الحرة

وبناء على ذلك فمن قوانيننا (وهي ليست مجرد ادوات
اضطهاد وانما تهدف الى المحافظة على كيانات المستبددين بحجة
سيادة القانون) ما يمكن اطاعته عن طريق استعمال درجة اعتيادية
جداً من قوة التعقل وضبط النفس . فمعظم النساء والرجال

يستطيع احتمال التبرم الاعتيادي بالحياة ، والخيبة منها دون
 ان يرتكبوا اعتداءات قتالة . ولذلك هم يستخلصون مبدا وهو
 ان اي شخص يستطيع ان يصد نفسه عن ارتكاب مثل هذه
 الاعتداءات ان شاءت او شاء ذلك ، ثم باشرت او باشر بتعزيز
 ضبط النفس بالتهديد وبالعقاب الصارم . الا انهم في هذا يركبون
 متن الشطط . هناك فريق من البشر يملك قوى فكرية وجسدية
 عظيمة . الا انهم يعجزون عن كبح جماح هياجهم الذي تثيره نكبة
 بسيطة ، عجز يفوق عجز كلب عن تمالك نفسه من الوثوب اذا
 قرص قرصة موجهة مفاجئة . انك ترى الناس وهم ناثرون يرمي
 بعضهم بعضا بالسكاكين وشموع الكافور لنزاع نشب فيما بينهم
 على مائدة عشاء . وتجد رجالا صدر بحقهم عدد من احكام السجن
 بالاشغال الشاقة بسبب مشاجرات قتالة ، لا يترددون في يوم
 اطلاق سراحهم ، من الامساك بزوجاتهم وقذفهن تحت عجلات
 النقل لكلمة تفوهن بها ازعجتهم . وليس عندنا فحسب اناس
 يعجزون عن مقاومة فرصة سرقة تعن لهم اشباعا لحاجاتهم ، بل
 لدينا ايضا اناس فيهم جنون السرقة (كلبتومانيا) يسرقون دون
 ان تدفعهم حاجة الى الاشياء التي يسرقونها . ان اللصوصية
 تجتذب بعض الناس كما تجتذب الملاحه بعض الصبيان . فكم بين
 الناس المحترمين يقوى تحذير اطبايهم والدروس الماضية على ردعهم
 وكفهم عن اكل وشرب اكثر مما يصلح لهم ؟ صحيح انه يوجد بين القادرين
 على ضبط النفس والدين لا يردعهم رادع ، وسط ضيق من
 المتمارضين خلقيا يمكن ان يرتدعوا ويرجعوا عن غيئهم بالخوف
 من العواقب . ولكن من العبث وعدم الجدوى الابقاء على نظام
 بغيض يقضي بإساءة معاملة المجرمين ، اساءة حاقدة عمديسة
 مذلة كثيرة التكاليف في سبيل هذه القضايا الهامشية ليس غير !
 ان مبدا الجبر او الارادة المسيطرة هو مبدا صالح التطبيق الى
 درجة كبيرة في مجال المعالجة العملية . والناس الذين لا يملكون

من ضبط النفس ما يكفيهم للاغراض الاجتماعية قد تفصف حياتهم قصفا ، او يؤدي الامر بهم الى مستشفى الامراض العقلية بعد دراسة حالتهم والتأكد من امكان شفائهم . اما تعذيبهم ثم الفخر بالفضيلة على حسابهم فهذه هي البربرية والسخافة بعينها . وكل رغبة في ممارستها هو قسوة وحقد أعمى . ومع ان القسوة والحقد الاعمى هما من الطبائع البترية على الاقل - عندما يعلنان للملأ ويمارسان على رؤوس الاشهاد . الا انهما يبدوان في غاية القبح والفظاظة عندما يتسربلان برداء العدالة . وهذا ما حدا على اغلب ظني ، بإيزابلا شاكسبير (1) الى تانيب القاضي انجلو . وهو نفسه ما حدا بسويقت ايضا الى ان يخصص للقضاة اشد زوايا جهنم حرارة ونارا . وهذا الذي حدا ببسوع طبعاً الى القول (لا تدينوا لئلا تدينوا) وقوله ايضا «من سمع كلامي ولم يؤمن به فلست انا السدي ادينه . لان هناك من يدبته» وأعني به الأب الذي هو معه واحد .

عندما يسلب منا شيء نحن بصورة عامة نعود الى قانون الجزاء من غير ان نفكر بأنه لو كان قانون الجزاء هذا فعلاً لمسا سلبنا . وهذا ما بدفنا ويدينا بروح الانتقام . لست بحاجة الى التفصيل في هذه المناظرة ، كثر مما فعلت الآن لاني عالجت الموضوع معالجة وافيه في محل آخر . على اني اريد الاشارة الى اننا بقينا منذ اشارة علينا يسوع بان لا نحاكم ولا نعاقب ، مستمرين في المحاكمات وفرض العقوبات . واني لانحدي

١ - بطة مسرحية (العين بالعين والسن بالسن) Measure for Measure
وشو يشير الى مشهد في المسرحية تقوم ايزابلا وهي متكررة برداء المحامي بالدفاع عن اخيها الذي وقع تحت طائلة غضب انجلو القاضي التزمت ظاهراً والعاسق باطناً . وكان على وشك ان يفرض عليه عقوبة الموت .

اذا كان بإقامة حجة تفنعتني بأن أمر العالم قد يكون أفضل ممسا
سيكون عليه وهو خالٍ من القاضي والسجن وساحات الإعدام على
طول الخط . اننا بعبارة بسيطة اضفنا الى بؤس الجريمة بؤس
العقوبة وزدنا على قسوة المجرم قسوة الحاكم . لقد تناولنا
الرجل الشرير وجعلناه اكثر شرا بتعديبه وتحقيره وجعلنا انفسنا
في الوقت ذاته بشرا أسوأ منه . الامر يبدو وليس فيه شيء من
المنطق اليس كذلك ؟ انه لاهون كثيرا قتل المجرم بالطف ما يمكن
تنفيذ عملية القتل ، او وسمه بميسم ثم تركه لضميره ، او معاملته
معاملة المريض او من خولط في عقله كما تعاملت انت الآن (لم يتم
- والشيء بالشيء يذكر - تحرير المجنون من السلاسل والقيود
الا في السنوات الاخيرة) هذا على ما أراه - الشكل الذي يمكن
به وضع تعاليم يسوع موضع التطبيق .

الفصل الثامن

يسوع في الزواج والاسرة

عندما نأتي الى الزواج والاسرة نجد يسوع يعترض نفس الاعتراض على المبدأ القائل ان ملكية الفرد للمخلوقات البشرية هي الاصل في الزوجية كما هي الاصل في حياة الفرد للثروة . يقول ان الرجل النزوج يحاول اسعاد امراته . والمرأة المتزوجة تحاول اسعاد بعلها بدلا من ان يقوموا (بعمل الله) . وهذه نسخة ثانية من «حيثما يكون كنزك هناك يكون قلبك» . بعد مرور ثمانية عشر قرنا نجد شخصا آخر يختلف عن يسوع اختلافا بينا هو تاليران (1) يدعو الدعوة نفسها حيث يقول : «المتزوج صاحب

1 - Charles Maurice Talleyrand (1754 - 1838) سياسي فرنسي

خدم في عهد الجمهورية وعهد نابليون والبودبون .

الأسرة ، يقدم على كل شيء في سبيل المال» . ومع ان هذا القول ليس دقيقا من الناحية العلمية الا ان فيه من الصحة ما يكفي ليكون اعتراضا اخلاقيا على الزواج . فما دام للرجل الحق في المخاطرة بحياته او بمدار رزقه في سبيل مثله وأهدافه ، فهو لا يحتاج الى اكثر من الشجاعة والعقيدة لجعل صحة القول هذه مما لا مجال للطعن فيها . الا انه يقضي على حقه هذا عندما يتزوج . لقد احتاج الامر الى ثورة لانقاذ فاغنر (١) من موعد الحضور الى مجلس القضاء في درسدن ولم تصفح زوجته عنسه قط لظهور السرور والشعور بالحرية عندما أخطأ ذلك الموعد فكدف بها الى احضان الفقر . وربما كان ميلليه (٢) سيبقي مسنمرا في رسم صور العاريات المثيرة الى آخر ساعة من حياته لو لم تكن زوجته من ذوي الاتجاهات البطوليّة هي نفسها . ان النساء يخضعن للاسعباد ويستسلمن للعنبر في سبيل اولادهن وأبويهن . وتلك حالة لا تقوى اية امرأة متحررة من هذه الروابط على تحملها .

تلك هي البداية والنهاية لاعتراض يسوع على روابط الزيجة والأسرة . وهذا هو التفسير المعقول عن خلو السماء من الزواج والمتزوجين ، وليس لدينا سبب للافتراض بأنه لم يكن يعني قوله هذا . انه لم يقترح العزوبة قاعدة اساسية في الحياة فهو ليس بهذا الغباء . ولا كان يعتقد - كما اعتقد بولس ان نهاية الحياة وشيكة لذلك فلا حاجة تدعو الى تكاثر البشر ، ولا بد انه كان

١ - ما يشير اليه شو هو حادثة معينة وقعت لهذا الموسيقار العظيم بخصوص دعوى مالية خسرها .

٢ - Millet (١٨١٤ - ١٨٧٥) رسام فرنسي اشتهر برسمه الفلاحين والحقول .

يقصد وجوب استمرار الجنس البشري بدون ان يتقسم الولاء الذي يدين به البشر لله الذي هو مع الرجال والنساء معا في ذات نفسه . وهذا يشير المشكلة العملية : كيف تضمن الحرية الروحانية ومكانة القس والراهبة .

ان لوثر القس لم يحل المشكلة بزواجه من راهبة ، بل ادلى عمله هذا فحسب بشهادة عملية مقنعة للغاية هي ان العزوبة اعظم خيبة واخفاقا من الزواج .

لماذا بقي يسوع عازبا ولم يتزوج ؟

المظاهر كلها تشير الى ان المشكلة لا تضايق الا اناسا مستثنين . ان النساء الاعتياديات تماما المتزوجات برجال اعتياديين تماما يجب ان لا يشعروا باي تقييد : فالقيد ليس قاصرا على تركهم احرارا يفعلون ما شاؤوا بل ان القيد نفسه هو الذي يسهل عليهم كثيرا استحداثه لانفسهم . فعندهم ان هجوما على الزواج ليس ضربة توجه في سبيل الدفاع عن حرمتهم بل ضربة تنزل بحقوقهم وامتيازاتهم . وقد يتوقع المرء انهم لن يقفوا عند الشك الحماسي في تعاليم يسوع هنا بل يتسადون الى الاعتراض الشديد حول بقائه عازبا وعزوفه عن الزواج هو بالذات . حتى اولئك الذين يعتبرونه إلها نزل عن عرشه السماوي متقمصا جسم بشر لفترة من الزمن ارى من حقهم القول ان بشريته بقيت غير كاملة في اهم نقطة وهي بقاؤه عازبا . الا ان الحقائق هي على طرفي نقيض من هذا . فمجرد التفكير بيسوع المتزوج ، يعتبر لدى معظم المؤمنين الاعتياديين من قبيل الكفر والتجديف حتى عند الذين لا يرون يسوع شخصية فائقة للطبيعة وانما هو نبي فحسب مثلما كان محمد نبيا . فهؤلاء يشعرون ان هناك شيئا اكثر مهابة وجلالا في عزوبة يسوع من منظر محمد وهو مستلق على ارض داره ساهما ،

بينما اجتمعت نساؤه حوله يتعاركن ويتنافسن على استحواذه .
اننا لا نعجب عندما دعا يسوع ابني زبدي ليلتحقا به دون ان يدعو
معهما اباهما ، ولا نعجب اذ نجد التلاميذ كلهم كيسوع قد
تخلصوا من مشاكل الاسرة . والامر ينضح من نفاد صبره عندما
كان الناس يعتدرون عن الانضمام اليه بسبب مجالس عسزاء
اقربائهم او عندما يفترضون بأن اول الواجبات هو واجبه تجاه امه
فواضح انه وجد قيود الاسرة والتعلق بالاهل مما يعترض سبيله
في كل منعطف حتى اصبح مقتنعا بالاخير الا احسد من البشر
يستطيع ان يتبع نوره الداخلي الا بعد ان يتحرر من تلسك
الالتزامات . ان انتفاء اي احتجاج ضد هذا يميل بنا الى القول ان
ليس هناك اناس عاديون في قضية الزواج وان كل واحد هو في
اعماق قلبه مسيحي صادق من الناحية الجنسية .

عدم تبات الفريزة الجنسية

الا ان المشكلة كذلك ليست من السهولة بمكان . ففريزة
الجنس هي غريزة في منتهى الدهاء او التعقيد وان معشر ابناء
البشر لا يعرفون حرية الضمير ، ولا يهتمون كثيرا به وهو ما كان
يسوع يفكر فيه . ويكاد يكون اهتمامهم البالغ حد الهوس ،
مقصورا على الجنس وهو الذي لم يقل عنه يسوع شيئا . وفي
طبائنا الجنسية يتجاذبنا الميل الذي لا يقاوم الى جانب القرف
الطاغي والاشمئزاز . ان لدينا عاطفتين جديدتين مستبدتين :
العفة والغلظة . واننا لنغدو مجانيين في ركضنا وراء الجنس ،
كما نغدو مجانيين ايضا عند اضطهادنا الجنس ! ان لم نشبع
رغائبنا ونقضي لباناتنا فالجنس ضائع . وان لم نكبح جماح هذه
الرغبات فنحن ندمر انفسنا . وهكذا ادى الامر بنا الى استنباط
شرائع الزواج التي تكفل في الوقت نفسه فرصا لاشباع الجنس

ووضع ما لا يحصى من العقبات امامه . واخترع ما يضعه نسي مصاف الرذيلة . ما يحلله وما يحرمه ، ما يجعله عيبا وما يجعله من قبل الفضيلة . وواضح انه من العبث البحث عن قواعد اثبات لمثل هذه السنن . وبالإصلاح المستمر واعادة النظر ، وبالمرونة الكبيرة في تطبيق أحكام تلك الشرائع فحسب يمكن الوصول الى نتيجة مقبولة . ولا حاجة بي هنا الى تكرار اجراء الفحص الطويل الدقيق على اولئك الذين صدرت بهم مسرحيتي (العرسان) وانما يهمني هنا آراء يسوع في الموضوع . ولأجل نفهم موقف الناس منها ارى من الضروري ان لا نتخذ من الاستحسان العام لقرار يسوع البقاء على حياة العزوبة كذريعة ومثابة لتعزيز وجهات نظره وتقويتها . اننا من الموضوع في حالة ارتباك ليس الا . على ان جانبا من الاضطراب يعزى الى استنتاجنا ان يسوع الذي كان عازبا بل منكمشا حتى من فكرة ولادته الطبيعية ، تسبب تشبها عنيدا بقداسة الشريعة التي تؤمن مخرجا من العزوبة وخالصا .

في السراء وفي الضراء

وعلى اية حال لم يعبر يسوع في موضوع الزواج عن رأي فيه تعقيد . ولم يكن اعتراضه عليه كبيرا بل في منتهى البساطة كما رأينا . لقد ادرك بأن لا احد يستطيع ان يعيش الحياة السامية الا اذا كان المال والحب والجنس مما يمكن الحصول عليه دون التضحية بتلك الحياة . وقد رأى ان تأثير الزواج كما كان موجودا عند اليهود (لا يزال موجودا ايضا) هو الذي يجعل الزوجين يضحيان بكل اعتبار ومبدأ سام ليطعم احدهما الآخر ويعمل على اسعاده ، وأسوأ ما في ذلك ان هذه الحالة الخطرة المتأففة للطبيعة في الزواج تشتد سوءاً بدلا من ان تتحسن بمدى تحسن سلوك الزوجين عموما . ان الزوج الاناثي الذي لا يرى في امراته

أكثر من أمة رقيقة والزواج الانانية التي لا ترى في بعلمها أكثر من كبش فداء وكادح في سبيل الخبز ، لا يصددهما عن المفاسرة الروحية أو أية مفامرة أخرى أي خوف من تأثير لها على سعادة وراحة رفيق العمر . والازواج لا يقيدون زوجاتهن الى المهذ ولا يقصرونهن على محيط الطبخ عندما يجب ان تكون اقدامهن الجميلة فوق الجبال . لكن عندما يغدو الناس فهم أكثر حنانا وأيقظ ضميرا وأكثر استعدادا لحمل الجزء الأكبر من العبء (بمعنى ان القوي سيدعن للضعيف ، وان البطيء يحتجز السريع) فان الزواج يصبح عقبة لا تطاق في سبيل ارتقاء الفرد . وهذا هو السبب في ان الثورة ضد الزواج التي كان يسوع اول المبشرين بها ، فكر علينا راجعة عندما ترفع الحضارة مستوى الواجبات الزوجية ودوابها العاطفية وفي الوقت نفسه توجد عند حرية الفساد حاجة أكبر للسعي نحو المزيد من الرقي .

العلاج

هذا هو وجه واحد فقط من وجوه الزواج لحسن الحظ وهنا يعن لك السؤال التالي : ايمنك استئصال شأفة هذا الوجه؟ والجواب مطمئن ومريح : «طبعاً ذلك ممكن» ففي طبيعة الاشياء ، ليس هناك مانع بشري يمنع اعتماد الزوجين احدهما على الآخر اقتصاديا . ان الشيوعية التي بشر بها يسوع تتخلص من هذه العقبة تماما . وهي كما رأينا شيوعية ممكنة تماما لا مفر منها. ان كان من الواجب علينا انقاذ مدنيتنا من الانهيار وبالاعتماد الاقتصادي ستتلاشى قوة المزايم الشائنة التي تستمد شرعيتها الحققة من الضغط الاقتصادي الذي يكمن وراءها . عندما يسمح الرجل لامراته بأن تصرفه عن خير عمل يستطيع القيام به فتحمله على بيع نفسه بأعلى ثمن تجاري يمكن الفوز به ، وعندما يسمح

الرجل لامراته بأن توقعه في أحبولة روتين اجتماعي من شأنه ان يرضيه ويرهقه او عندما تشده بشريط مئزرها في وقت كان بحاجة الى تلك الوحدة التي هي حق من اقدس حقوق البشر بين فترة وأخرى فانه يفعل ذلك لانه لا يملك الحق في ان يفسر ض عليها مقاييس شاذة عن العرف والعادات اللااجتماعية ولان هذه الاحوال بظفوطها المختلفة قد اولست عادة تكبيل القرينين المتزوجين احدهما بالآخر حتى بلغ من شيوعتها ان الناس المتزوجين يصبحون هدفا لسخرية فظة عندما يعمد عشراؤهم الى كسر ذلك القيد ، وعندما يحكم الابوان على امراة بالانتظار في حالة مسن التعطل التام وتبديد الوقت حتى يأتيها زوج في حين تدعوها سا غرائزها الاجتماعية السليمة الى البحث عن مهنة وعمل فسان انكالها الاقتصادي عليهم هو الذي يجعل طفياهم مؤثرا .

ما يعزز من حجة الزواج

وهكذا ، فمع اننا نغالي عندما نقول بان كل ما هو كربه في الزواج وفي حياة الاسرة سينتج الشيوعية عند معالجته ، يمكن القول بان هذا النظام ينجح في شفاء ما عارضه يسوع من تلك الشرائع والسنن . انه لم يقم بدراسة مستفيضة لتلك الشرائع لكنه عبّر عن شكواه بشعور طاغ ، اعني الشكوى التي بلغت من العمق حداً انها لم تراع اي اعتبار للجانب الآخر من الموضوع حتى لكانها غبار في كفة ميزان . ومن الواضح ان نم اعتبارات وجيهة جدا حملت تالليران على القول بان المتزوج ورب العائلة قمين بعمل اي شيء ، فقد قصد (بأي شيء) كل شيء . الا ان متفائلا قد يقول (والى جانبه نصف الحقيقة بالضبط) : ان المتزوج جدير بكل ما هو صالح ، وان الزواج يجعل من المتشردين الافاقين مواطنين مثابرين دؤوبين . وان الرجال والنساء مدفوعين بحبهم لشركاء

حياتهم وأطفالهم سيسلكون طريق الفضائل التي يعجز عمن ممارستها فرد لا يشده هذا الرباط . وصحيح ان الكثير جدا من هذه الفضيلة العائلية هي مجرد «انكار ذات» وانكار الذات فسي الواقع ليس من قبيل الفضائل مطلقا . على ان اتباع النور الداخلي مهما بلغت التكاليف هو على الاغلب مسمى ذاتي لا يقل بأي حال من الاحوال عن انكار الذات بكل ما فيه من ضعف وجبن وميول انتحارية . ان ايبسن (١) الذي يأخذ بيدنا الى معالجة المسألة بعزم أشد من عزم يسوع يقف عاجزا عن ايجاد قاعدة ذهبية . فكل من براند وبرغنت انتهى الى نهاية سيئة ومع ان ما أحدثه براند من ضرر لم يرق الى مستوى ما أحدثه هذا الآخر فإنه كان ذا اثر فائق للعادة .

العزوبة ليست بعلاج

فيما اظن ، ينبغي لنا التأمل في اعتراض يسوع على روابط جية والاسرة ، باعتبارها من قبيل المزام التي يدعي التخلص والتحرر من قيودها طائفة معينة من الافراد ، لكونها تعرقل لهم الى درجة لا يطيقونها . وعندما قال لنا يسوع انه يترتب اذا اخترنا طريقه والسير على هديه - ان نترك روابطنا بولية ، فإنه كان يقرر حقيقة من الحقائق . وانك لتري الكاهن اثوليكي ، واللاما البوذي ، والفقيه الهندي (٢) ومن لف لفهم

١ - Henrik Ibsen (١٨٢٨ - ١٩٠٦) مسرحي وشاعر ومفكر نرويجي هاجم مقاييس السلوك الاخلاقي السائد . ومن اهم مسرحياته (براند ، وبرغنت) .
٢ - اللاما هو الراهب البوذي من ابداع الديانة البوذية المنتشرة في التبت وجنوب الشرق الاقصى من آسيا والصين على الاخص . و«الفقيه الهندي هو رجل تقي نذر نفسه للتجوال والعيش على الصدقات .

من كل طائفة او ملة يقبلون بهذا القول . كذلك تجده مقبولا من ذوي المهن التي تتطلب مجهودا بدنيا وعند كل صنف من المستكشفين النشطين الذين لا يستقر لهم قرار ، وبمختصر القول انك تجده مقبولا عند المغامرين . وأعظم تضحية في الزواج هي تضحية الموقف الذي ينطوي على المغامرة بالحياة وبلاستقرار . ان اولئك الذين يشكون التعب المزمين قد يتلهفون الى الاستقرار . والاستقرار للنفوس القوية المتفتحة هو شكل من اشكال الانتحار .

والآن فالقول عن اية سنئة من السنن بانها لا تمشى مع الحياة المفكره المندفعة المغامرة ، هو اعظم ما يمكن ان يوجه اليها من انتقاص ، بحيث ان جميع التأويلات الاخلاقية لكل الاساقفة والوكلاء لا يمكن ان تعيد انفسنا الى عبوديتها . فيسوع غير المتزوج وبيتهوفن غير المتزوج وجان دارك البتول ، والعدارى : كلير وتيريز ونايتنكيل يبدون كلهم كما يجب ان يكونوا . فالقول بان في الفيلسوف المتزوج ما يدعو الى الاستخفاف دوما ، يغدو قولا لا مناص منه . ومع هذا فان العازب ما زال موضع استخفاف وسخرية أكثر من المتزوج . والكاهن في قبوله بالبديسل ، اي بالعزوبة ، يجعل من نفسه شخصا عاجزا ، وخير القسس هم من كانوا رجالا علمانيين قبل ان يصبحوا من رجال العالم الآتي . ولكن لما كان نذر التبثل لا يبطل زواجا قائما ، ولما لم يكن بوسع الرجل المتزوج ان ينضوي الى سلك الكهنوت ، فاننا نعود نانية لنجابه شذوذا ، وهو ان خير القسس هو ذلك الخليع الذي تاب الى رشده وتاب . وهكذا يدفع بنا الزواج الذي هو امر لا يطاق بحد ذاته ، الى خيارين كلاهما غير محتمل ا والحل العملي هو ان يجعل الفرد مستقلا اقتصاديا عن الزواج والاسرة . ويجعل عقد الزواج سهل الابطال كأي عقد شراكة وبعبارة اخرى الرضسى بالنتائج التي تتجه اليها ببطء تجربة كل من علماء الاجتماع وواضعي القوانين عندنا . وليس هذا مما يعالج شرور الزواج ولا

ان يقتلع بضربة واحدة تقليده الممجوج في الاستئثار بالابدان البشرية بل سيترك الطبيعة حرة لتبتدع علاجاً . وفي التربة الحرة يدوي الجذر ويموت .

ان هذا يسير ويتمشى مع كل آراء يسوع وتعاليمه التي ما زالت ميدان اخذ ورد وكلها تتفق بصورة باتة مع افضل نتاج الفكر الحديث . لقد ابلغنا بما يتوجب علينا عمله فترتب علينا ايجاد سبيل العمل . وما زال معظمنا كما كان معظم معاصري يسوع متطرفين في معارضتنا ومرغمين على السير في هذا النهج بضغط اليم من الظروف ، فنحتج في كل خطوة نخطوها بقولنا لا شيء يرغمنا على السير ، انه لسبيل مضحك ، سبيل شائن ، سبيل لا اخلاقي ، وانه يجب على الطبيعة ان تخجل من نفسها وتعود القهقري حالاً . الا انهم على اية حال مضطرون الى السير وراء تلك الطبيعة ان ارادوا ان تكون للحياة قيمة .

الفصل التاسع

ما بعد الصلب

الا فلنعد الآن الى قصة الرسل لان ما حصل بعد غياب يسوع له دلالة . كان الصلب لسوء الحظ ، نجاحا سياسيا كاملا . وأذكر اني احدثت صدمة عنيفة في جريدة دوبلن ديلي اكسبرس التي تتمتع بأكبر منزلة من الاحترام في مسقط رأسي ، عندما وصفت الصلب بهذا الشكل مرة فيما مضى ، ذلك لان عبارتي الصحفية اظهرتني وكأنني أعالج المسألة كما أعالج اية حادثة من الحوادث الاعتيادية ، كمسألة الحكم الذاتي او قانون التأمين الاجتماعي اعني كواقعة حصلت فعلا وان لم يخطر ذلك ببال رئيس التحرير - لا كجزء من العقائد المذهبية او الطقوس البيعي . واني لاكرر عن هذه الواقعة بوصفها وقعت فعلا - انها نجاح كامل لحدث تاريخي كامل الابعاد والمسيحية كعقيدة قائمة بذاتها قتلت بمقتل يسوع فجأة وبصورة نهائية . فقبل ان يبرد جسده في القبر ، او قبل ان يبلغ سماواته (اختر منها ما يحلو لك) قسام

الرسول بجر تعاليمه الى الاسفل حتى بلغوا بها المستوى الذي بقي عليه منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا . ويدرك الكفار الاذكياء هذا الامر من قراءتهم رواية صموئيل بتلر الموسومة (الطريق الى كل اللحم) (١) بارشاد الكنب الحديثة وعلى هديها .

الاعاجيب الانتقامية ورجم اسطفانس

خذ الاعاجيب مثلا . فيسوع هو الوحيد من بين صنعسة الاعاجيب المسيحيين الذين لم يجر على يده او تذكر له اعجوبة سيئة العقبي او تدميرية او انتقامية الا في بعض الاناجيل التي رفضها جميع المسيحيين . ان التينة العقيمة (٢) كانت الضحية الوحيدة لسخطه . وكل معجزة من معجزاته في المسائل الحساسة هي اعمال حنان وعطف وبناء . يقول يوحنا انه ابرأ جرح الرجل الذي قطع بطرس (٣) اذنه بسيفه عندما جاؤا لاعتقاله في بستان الزيتون . الا ان من اولى الاعمال التي قام بها الرسول مستعنين بقواهم الخارقة هو قتل رجل تاعس مع قرينته لانهما خدعاهم باخفاء جانب من المال وجبسه عن ملكية المجموع كما اصابوا بعض الناس بالعمى او الموت دون تأنيب من ضمير او ندم . لقد ادانوا لانهم كانوا قد اديوا . والحقيقة انهم ابرأوا المرضى واحياوا الموتى تحذوهم كما يظهر روح الدعاية والاعلان وحب الظهور ليس الا . ولم يكن مبدؤهم يحوي شعاعا وقبسا من ذلك النور الذي يظهر

١ _ The Way to all Flesh عنوان قصة لسموئيل بتلر طبعت . بتعيد وفاته

وهي في الواقع سيرة حياته مع ابيه المتدين الذي وجد في تدينه طفيلانا لم يطقه .

٢ _ لوقا : ف ١٣ .

٣ _ يوحنا : ف ١٨ .

يسوع واحدا من مخلصي البشر من الائم والدنس . لقد تخطى
الرسل معلمهم ، وعادوا رأسا الى يوحنا المعمدان والى مبدئه
الذي يشترط الندامة والعمودية لغفران الذنوب اعني «الولادة
الثانية بالماء والروح» . وان اول خطبة القاها بطرس تذيب قلوبنا
بانسانية استهللها . وهي تأكيد جذاب لمستمعيه بوجوب الوثوق
بصحوته لان الوقت جد مبكر على شكره . الا انه لم يصف شيئا
عن يسوع الى ما قاله فيه قبلا ، الا ذكره بأنه المسيح الذي تنبا
بقدمه الانبياء ، وبانحداره من نسل داود ، واوصى بالايامن
بهذا ، واوجب العمودية على المؤمنين به . والى هذين الشرطين
اضاف الرسل الآخرون تنديدات لا نهاية لها باليهود لانهم صلبوه ،
وتهديدات بما سيحل بهم من الدمار ان لم يتوبوا ويندموا على ما
اقترفوه ، اعني ان لم ينضموا الى الطائفة التي يقوم الرسل
بانشائها . القى خطيب في مقتبل العمر لا يمكن الصبر عنه ابدا
اسمه اسطفانس خطبة في المجمع رمى المستمعين فيها اولا بالتهمة
المملة التي الصقها بهم التاريخ الاسرائيلي وهو التاريخ الذي كانوا
على اغلب الظن يعرفونه مثلما يعرفه هو . ثم انشأ يشتمهم
بعبارات جارحة جدا كقوله «يا غلاظ الرقاب وذوي القلف» .
اخيرا ، بعد ان اضجرهم وازعجهم الى الحد الذي لم يعمودوا
يطيقون عليه صبورا ، شخص بانظاره الى الاعلى وصاح قائلا انه
يرى السماوات تفتح ابوابها والمسيح واقفا عن يمين الله ، وكان
هذا خارجا عن قابلية احتمال اكثرهم حلما فقدفوا به الى خارج
المدينة وتولوا رجمه حتى قتلوه ، وهذا أسلوب قاس صارم في
اسكات مفرور سمج ثقيل الظل . الا انه عمل انساني يمكن اغتفاره
اذا ما قورن بمقتل حنانيا وسفيرة .

بولس

وفجأة يدخل المسرح بولس العبقرى العنيف في عدائسه

للمسيحية . يدخل حارساً ثياب راجمي اسطفانس . انه ليشتد
 في اضهاد المسيحيين حتى يجاوز فيه كل حد معتبرا ذللك
 هواية فضلا عن العمل الذي يرتزق منه وهو نسج الخيام . وكرهه
 العجيب هذا يسوع الذي لم يقع عليه نظره هو من قبيل الاعراض
 الباثولوجية . انه ذلك النوع من التكوين العصبي والفكري الذي
 يؤدي بالمرض فيه الى الوقوع تحت طفيان نوعين من الرعب
 الهلوسي : رعب الائم ورعب الموت . او ما يمكن تسميتهما بالخوف
 من الجنس والخوف من الحياة . فها هو يسوع بعقله السليم
 وباعلى درجات الحصافة والاتزان ، تراه متحررا تماما من هذين
 الخوفين فيخالط الخطاة غير هيّاب ولا وجل ولا يهتم — على قدر
 معلوماتنا — بما يرى الآخرون في سلوكه اهو ناب ام مستقيم .
 وبهذا ارغمنا على قبوله شخصا خاليا من العيوب ، طاهرا من الائم
 والخطيئة . وحتى لو اعتبرنا ايامه الاخيرة ايام وهم ورؤى بالنسبة
 له ، فقد بدا على اية حال بمظهر مقنع الى حد بعيد بارتفاعه عن
 شعور الخوف من الموت . ولا بد ان هذا المظهر اربع بولس او
 شاؤول (كما كان يدعى اولا) وفتنه في الوقت نفسه . فالرعب
 دفعه الى اضهاد المسيحيين اضهادا لا هواة فيه . والغتون
 كان سببا لرؤيا من اغرب الرؤى التي شاهدها . رؤيا ارتباط
 اسم يسوع المسيح بالفكرة العظيمة التي داهمته كوميض البرق
 الخاطف وهو في طريقه الى دمشق ، وهي فكرة عجزه عن انشاء
 دنيا من الخوفين اللذين يمتلكانه . فضلا عن ان الحركة التي بدأها
 المسيح زودته بنواة لكنيسته الجديدة . كانت فكرة مريعة تلك
 التي لاحت له . ومثلها كانت الصدمة التي خلفتها فيه كما اقر
 هو نفسه فيما بعد . لقد اطفأت نور عينيه فبات اعمى عدة ايام .
 اذ سمع يسوع يناديه من السحاب قائلا «يا بولس لماذا انت
 تضطهذي ؟» . ان بغضته الطبيعية ب (المعلم) الذي لم يكن للموت
 او للخطيئة اي تأثير من الخوف عليه ، انقلبت الى عبادة شخصية

جنونية له . تلك العبادة التي تتمثل فيها روعة الشيء الجميل منظورا من زاوية ضوء كاذب خالب (١) .

لا يرى مدوّن كتاب (اعمال الرسل) شيئا يلفت النظر في هذا . والخطر الاكبر للهداية الى عقيدة ما في كل العصور كان يكمن في هذا : عندما يتقدم دين العقل الرفيع الى العقل الادنى ، فان العقل الادنى الشاعر بفتنة العقل الرفيع وطغيانه من دون فهم له مع عجز عن الارتفاع الى مستواه ، فما يكون منه الا ان يقوم بجره الى الاسفل حتى يصل به الى مستواه عن طريق الحط من قسده وارثخاص قيمته . منذ سنوات خلت قلت ان اهتداء الانسان الهمجي الى المسيحية ، هو في الواقع اهتداء المسيحية السي الهمجية ، واهتداء بولس ليس اهتداء على الاطلاق . ان الدين الذي رفع انسانا فوق الخطيئة والموت ، حوّله بولس الى دين اسلم ملايين الناس الى سلطانهما تسليما مطلقا ، بحيث اصبحت طبيعة وجودهم مجرد خوف وغدت الحياة المتدينة انكارا للحياة اصلا . لم يكن في نية بولس قط ان يسلم (يهوديته) او جنسيته الرومانية (للعالم الاشتراكي اليسوعي الاخلاقي الجديد) كما اطلق عليه دوبرت أون (٢) . وكارل ماركس نفسه لم يكتف في عصرنا هذا بأخذ الاقتصاد السياسي كما وجدته بل اصر على اعادة بنائه من القعر الى الاعلى بطريقته الخاصة . وبهذا اعطى للأخطاء الجديدة التي كانت تتنامى وتتعاظم فرصة جديدة للتصحيح والحياة . كذلك الامر ببولس فقد أعاد بناء عقيدة الخلاص القديمة (وهي

١ - ف ٨ : أعمال الرسل .

٢ - Robert Owen (١٧٧١-١٨٥٨) مصطلح اجتماعي انكليزي

ومن اوائل زعماء الحركة النقابية العالمية . اشتهر بكتابه «نظرة جديدة الى المجتمع» .

العقيدة التي حاول يسوع انتقاها منه ومن أمثاله فباعت محاولته بالفشل) ، فانتج من جراء ذلك لاهوتا عجيبا ما زال أغرب شيء معروف من نوعه لدينا . ولما كان من الناحية الثقافية عقلانيسا رومانيا اصيلا يطرح دائما ما لا يستقيم مع العقل في المسائل الحقيقية ليأخذ بسبيل الاشياء غير الحقيقية (المسلم بها استقرايا ومنطقيا مع ذلك) فقد بدأ بانكار الانسان كما هو واختار بدلا مسلما به وهو آدم وهو ما كان يجب أن يحصل في الواقع لدنيا ليست كلها مصابة بالجنون . وعندما سئل «ماذا حل بالبشر السوي ؟» اجاب «آدم هو البشر السوي» وكان جوابه محيرا للسذج (لان اسم آدم كان بحسب التقليد اسما للانسان السوي الذي خلق في جنة عدن بالتأكيد) حتى تكأن واعظا في مصرنا هذا قد وصف بأنه مثال فرانكشتاين بريطاني . ثم سماه سمث . وعندها سأل احدهم : «وماذا يقال عن رجل الشارع ؟» فأجيب «سمث هو رجل الشارع» وهذا الشيء هو كثير الحدوث . والواقع ان العالم حافل بهؤلاء الأدميين والسمثيين ورجال الشارع والشهوانيين العاديين والاقتصاديين كذلك يعج بالنسوة الانثويات وما السى ذلك . وكل من هؤلاء اطللس (1) خيالي يحمل دنيا خيالية على كتفين وهميتين .

ان قصة جنة عدن تزود آدم بخطيئته الاصلية التي اصابتنا كلنا بلعنة والاثر يبدو سخيفا بوضعه بهذا الشكل السيء . ومع هذا فهو متعلق بشيء له وجود فعلي لا في ضمير بولس وانما فسي ضمائرنا نحن ايضا . ان الخطيئة الاصلية لم تكن بسبب اكل الثمرة المحرمة بل للشعور بالاثم الذي يولده اكلها . ففي الوقت

1 - هو اسم لابن احد العمالقة في الاساطير الاغريقية الفابرة تقول الاسطورة عنه انه عوقب بان يقوم بحمل السماء على كتفيه .

الذي ذاق به آدم وحواء التفاحة وجدا نفسيهما خجلين مسن
علاقتهما الجنسية التي ظلت تبدو لهما قبلها امرا لا غبار عليه .
ولا مجال ثم للتغلب على الحقيقة الثابتة وهي ان هذا (الحياء) او
(حالة الشعور بالاثم) قد ظلت تلازمنا حتى يومنا هذا ، وانها كانت
واحدة من اقوى غرائزنا . ولهذا فان تسليم بولس بأن آدم هو
الانسان الطبيعي هو تسليم صحيح من الوجة البرغماتية
(الدرايمية) حالفه النجاح . على ان نقطة الضعف في البرغماتية
هي ان معظم نظرياتها يحالفها النجاح عندما تصمم انت على انجاحها
شريطة ان لا تخلو من ناحية بشرية ولا تناقض الطبيعة الانسانية .
ان الهيدونية ستجتاز الاختبار البرغماتي ، فضلا عن الرواقية
نفسها . وكل مبدأ اجتماعي سيحالفه النجاح الى حد ما ان لم
يكن مبدأ جنونيا صرفا مائة بالمائة . فالاتوقراطية نجحت فسي
روسيا ، والديمقراطية نجحت في امريكا . والاحادية نجحت في
فرنسا ، وعبادة الالهة العديدة نجحت في الهند ، والوحدانية
نجحت في الاسلام ، و«اللائية» (1) نجحت فسي انكلترا . ان
المفهوم العجيب لآدم الملعون عند بولس الذي مثله بونيان بحاج
ينوء ظهره بحمل من الخطايا عظيم ، يماثل الشرط الاساسي
للارتقاء الذي ينص على ان الحياة وبضمنها الحياة البشرية، ترتقي
باستمرار ، فعلينا والحالة هذه ان نخجل من نفسها ومن حاضرنا
ومن ماضيها باستمرار . ان حاج بونيان يريد التخلص من حمل
خطاياها ، الا انه يريد كذلك ان يبلغ «الضياء الساطع البعيد»
وعندما يسقط عنه حملة اخيرا امام ضريح المسيح ، سيجد حجته
ناقصة وان اشق تجاربه ما زال ينتظره . وضميره سيبقى معذبا

1 - No-ism هذا تعبير ابتدعه شو هنا ، للاشارة الى الخلق السلبي
الذي تجده عند فريق من الناس . وهو عدم ايمانهم بما نقول وانكارهم كل شيء .

غير مرتاح والخطيئة الاصلية ما برحت تورثه الآلام ومغامرته مع الجبار المسمى (اليأس) الذي يقذف به الى جب (قلعة الشك) (يفلت منها باستخدام مفتاح رئيس) (١) هي افطع من اية تجربة مرت به يوم كان حمل خطاياها مردفا على عاتقه .

ان قصة بونيان الرمزية عن الطبيعة الانسانية ، تغزو لاهوت بولس في مائة نقطة ونقطة . ان قصته الرمزية اللاهوتية والحرب المقدسة بجنودها من النخبة المرتابين وفرسانها الذين يمتطسون سهوات «خيل الاصلاح» هي سخيفة ككل ، مستحيلة يكاد يمجها الذوق فلا يقوى المرء على قراءتها باستثناء الفقرات التي ترى فيها آدم الفنان الشيخ وهو يغزو فيستظهر في كل لحظة على ذلك اللاهوتي الخلاصي ! (٢) .

ان نظرية بولس في الخطيئة الاصلية كانت تمتاز بميزة معينة الى حد ما . فهو يقول جازما بأنه قادر على اجتناب الوقوع في خطيئة الجنس باتخاذ الصفة الفردية . الا انه يدرك بشكل يغلب عليه الاستخفاف بأنه في هذا المجال ليس كالأخرين فيقول : خير لهم ان يتزوجوا من ان يحترقوا ، وبذلك يسلم ان الزواج وان كان يؤدي الى تقديم الرغبة في مسرة الزوجة او زوجها على الرغبة في مسرة الله ، الا ان الانشغال بالرغبة التي لم تشبع قد تكون كفرا بالله اكثر اثما من الانشغال بأمور العاطفة الزوجية . ان وجهة النظر هذه الى القضية ادت به بصورة لا مفر منها الى الاصرار على ان المرأة يجب ان تكون أمة رقيقة لا شريكة حياة ، وان مهمتها الحقيقية ليست لاجتذاب حب الرجل واخلاصه بل بالعكس لاجل

١ - SkeletonKey وهو مفتاح مصنوع بصورة خاصة ليفتح اكبر عدد من الاقفال .
٢ - يقصد به الرسول بولس كما هو واضح .

اطلاقهما وتوجيههما الى الله بتحرير الرجل من كل انشغال
بالجنس مثلما تحرره بوصفها مدبرة بيت وطاهية ، من انشغاله
بأمر الجوع ، يتم ذلك بالوسيلة البسيطة : وهي اشباع شهوته .
هذه العبودية تبرر نفسها برغماتها بالعمل بصورة مؤثرة . الا انها
جعلت بولس عدواً خالداً للمرأة ، وادت بصورة عفوية الى كثير
من الحدس والتخمين الاحمق حول اخلاق بولس الشخصية
وظروفه من قبل اناس استبد بهم الشبق الجنسي حتى عدوا
العازب غولاً مخيفاً . وهم ينسون بأن كل طبقة الكهنة الرسميين
وغير الرسميين ، ابتداء من بولس حتى كارليل ورسكن قد تحدثت
طفيان الجنس فضلاً عن عدد كبير من المواطنين العاديين مسس
الجنسين انقلدوا مؤهلاتهم وطاقاتهم سعياً وراء ضروب نشاط أقل
بدائية وبهيمية من النشاط الجنسي اما باختيارهم واما تحت
ضغط ظروف يمكن التغلب عليها بسهولة .

ان بولس على اية حال ، نجح في سرقة صورة المسيح المصلوب
ليجعله تمثالا لقيدوم سفينته الخلاصية وليجعل آدم متخذاً فيها
شكل وابعاد الانسان الطبيعي ، الى جانب العقيدة بالخطيئة
الاصلية ولعانها الذي لا يمكن الخلاص منه الا بالايمان بتضحية
الصليب . والواقع انه بما ان قام يسوع بطرح تثنى الخرافات
ارضا ، حتى بادر بولس بانهاضه على قدميه انهاضاً باسم يسوع
نفسه .

فوضى العالم المسيحي

بات واضحاً الآن انه يجب الا يخلط المرء بين دينين لهما
تأثيران مختلفان في البشرية ولهما في الوقت نفسه اسم واحد .
ليس هناك كلمة واحدة من مسيحية بولس في اقوال يسوع التي

تحمل طابعه . وعندما وقف شاؤول (1) حارسا على ثياب اولئك الذين رجموا اسطفانس فانه لم يقم بذلك بوحى من المعتقدات التي نيدها بولس . كذلك ليس هناك قط ما يشير الى ان يسوع قال لاي انسان « اذهب واثم قدر ما تريد وبامكانك ان تضع اثمك كلها على عاتقي » بل قال « لا تأثموا » واصر بأنه انمسا يضع حدودا ومقاييس للسلوك ، وليس يحط من مستوى السلوك . واكد ان صلاح المسيحي يجب ان يرتفع عن مستسوى صلاح الكتبة والفريسيين وان فكرة بذل دمه حتى يخوض فيه كل محتال وزان وفاجر ، ليخرج منه وهو انصح بياضا من الطيف ! لا يمكن ان تعزى الى يسوع من مرجعه نفسه أعني لا يمكن ان نعزو اليه قوله مثلا « جئت كعقار ذي علامة مسجلة ، لا يخطيء مفعوله ، لمعالجة الضمائر المريضة والجانحة » ان هذا ليس من اقوال الاناجيل . ولو كان بالامكان استشارة يسوع في قصة بونيان الرمزية حول موضوع حمل الخطايا الساقطة عن ظهر الحاج عند رؤيته الصايب ، فعلى ان نستنتج من تعاليمه بأنه كان سيقول لبونيان بلهجة جازمة : انك لم ترتكب في حياتك خطأ اعظم من هذا . وان وظيفة المسيح هو ان يجعل الاثمين المرورين يشعرون بعبء خطاياهم فلا يعودوا يرتكبونها ، لا التاكيد لهم بأنهم امامها عاجزون لا يستطيعون لها دفعا ما دامت كلها بسبب خطيئة آدم على ان هذا لا يهم ما داموا ينظرون الى المسيح نظرة صداقة وتصديق . حتى عندما اعتقد انه إله فانه لم يعد نفسه كبش فداء . وكان يترتب عليه ان يمحو خطايا العالم بحكومة جيدة ، وينشر العدالة والرحمة ، ووضع مصلحة اطفاله فوق غرور الامراء والقراء كل الشعوب والوئنيات التي تفتصب قوة الله وتفسدها فيما تسميه سلطانا

1 - هذا هو اسم بولس اليهو ، الاصلي .

الحاكمة اليوم «بآلة ائتلاف النفايات» وبركوب سحب السماء
بالمجد بدلا من ركوب سيارة ثمنها ألف جنيهه (١) . ان هذا ،
هذيان لو تدبرته ا على انه هذيان روح حرة لا هذيان روح اسيرة
الخنجل كروح بولس . وفي الحقيقة ليس ثم خدعة يرتكبها امرء
افطع من خدعة مقارنة روح بولس وتحديدها على ضوء روح
يسوع .

سر نجاح بولس

لا شك ان الزمن لم يطل ببولس ليجد أتباعه قد توصلوا الى
راحة البال وحققوا الانتصار على الموت والخطيئة على حساب كل
مسؤولية ادبية ، اذ انه عمل جهده لاعادة صياغة المبدأ يجعل حسن
السلوك محكا للايمان الراسخ، مصرا على ان الايمان الراسخ المكين
ضروري للخلاص ، ولكن لما كان نظامه قد ثبتت جذوره فيما اتضح
بان ما سماه خطيئة انما يتضمن الجنس ولما كان والحالة هذه
جزء لا يمكن فصله عن الطبيعة البشرية (والا لماذا وجب على
المسيح ان يكفّر عن آثام كل الاجيال القادمة ؟) فقد تعذر عليه
التصريح بان الاثم - حتى في اشنع مظاهره - قادر على ضمان
خلاص الاثم اذا ندم وآمن . ومسيحية بولس الى يومنا هذا ما
هي الا «علاوة رائب !» للاثم ، كذلك فهي تدبّر بفضل موضتها
الشائعة جدا الى كونها كذلك ، كان من الواجب على تلك الاغلبية
التي خبرت الحياة ، ان تكبح جماح نتائجها وآثارها بنظمام
اشتراكي عنيف وهو قانون العقوبات والقواعد الاخلاقية الصارمة .
على ان الكايح الرئيس هو الطبع البشري بطبيعة الحال ، ففيه

٢ - اي : سيارة باهظة الثمن .

الميول الصالحة كما فيه الميول الطالحة ، نراه بحجم عن السرقة والقتل والقسوة حتى عندما يبترونه بأن في مقدوره ان يقتربها كلها على حساب المسيح ثم يعرج الى السماء سعيدا مطمئنا ، لمجرد انه لا يرغب دائما في ان يقتل او يسرق ، او يعذب . ويسهل كثيرا اليوم فهم سبب قتل مسيحية يسوع فشلا تاما في تثبيت نفسها سياسيا واجتماعيا ولماذا كان من السهل جدا خضد شوكتها وتصفيتها بقوة الترطة والكنيسة ، في حين اجتاحت البولسية العالم الغربي المتمدين كله ، وكانت في ايامه الامبراطورية الرومانية التي اتخذت من البولسية دينا لها رسميا فخرت الآلهة المنتقمة القديمة صريعة وباتت عديمة الحول أمام «المخلص الجديد» . على ان تلك الآلهة كما نرى ، ما زالت محتفظة في افريقيا لسلطانها في اداء رسالة الامل والعزاء للبسطاء بشكل لا يفاج فيه ولا يقوى عليه دين آخر . على ان هذا السحر يولده امتزاجها غير الشرعي مع السحر الشخصي الذي حازه يسوع ولم يحرزه الا لاجل العقول البدئية التي ينقصها التدريب . الا ان الامر اختلف عندما وصلت الى يد رجل منطبق مثل كالفن فقد دفعها الى غاياتها القصوى مستنبطا كنائس «للبالغين من بين اولاد الاسكتلنديين الحمقى والسويسريين الواقعيين» وبذلك جعلها اشد العقائد الجبرية جهنمية ! يفسد منطلقها حياة الاطفال المتمدينين ، في حين يسعد الزوج الاقزام في خرافاتها .

فضائل بولس

ومهما يكن من امر بولس لم ينل سمعته العظمى بمجرد «الارغام» و«رد الفعل» . وهو لا يبدو مبتدلا او مختالا الا عندما يقارن بيسوع (الذي يفضله الكثيرون عليه) . وان هو بدا فسي اعمال الرسل احيائيا مبتدلا سوقيا فانه يبدو في سفر اعماله

الخاص ، شاعرا مطبوعا وان كانت تلك الشاعرية تبدو كإيماضات
خاطفة . كان بولس بعيدا عن المسيحية ، قدر ما كان يسوع بعيدا
عن المعمدانية . انه تلميذ ليسوع قدر ما كان يسوع تلميذا ليوحنا
المعمدان ، لا يعمل شيئا مما كان يسوع يعم به ، ولا يقول
شيئا مما كان يسوع سيقوله . ولو انه طبق مثال (التقدمة الى
الاحسان) (١) المشهور لزيد الاعجاب به . انه اشد تمسكا باليهودية
من اليهود ، واغوى رومانية من الرومان. وهو يفخر بالوجهين ولا
ينضب له معين من الاعترافات المذهلة والرؤى الشخصية التي
لا نندهش اذ نراها تنسلّ انسلالا الى صفحات نيتشه . يعذبه
ضمير مثقف لا يفنا يتطلب قضية محكمة على حساب المفاظة مع
مختلف انواع الفضائل الجميلة والومضات العقلية العرضية
اللامعة ، الا انه لا يني يروح دونما أمل بالخلاص ، تحت وطأة
الائسّم والموت والمنطق وتلك أمور لم يكن لها اي سلطان على
يسوع . وقد سبق فرأينا ان مزجه شعوره بالعبودية والرعب في
العقيدة المسيحية ادى الى تبني الكنيسة والدول والانظمة السياسية
لذلك الاتجاه ، وهذه أمور سما فوقها يسوع ، وهكذا جعل بولس
المسيحية عقيدة عملية بقضائه على الجانب اليسوعي فيها على
الاخص . وهذا ما قد يكون مناسباً تماما لاية دولة برونستانتية
لذلك كان هو وليس يسوع الزعيم الحقيقي والمؤسس الاول
لكنيسة الاصلاح ، كما كان بطرس مؤسسا للكنيسة الرومانية .
واتباع بولس وبطرس هم الذين اوجدوا العالم المسيحي ، اما
الناصريون (٢) فقد قضي عليهم القضاء المبرم .

١ - او الصدقة او ما يدعى بموعظة يسوع الكبرى وهي الفسول ٥ و٦ و٧ من
انجيل متى و(الاحسان) المقصود هو الفقرة التي تضمنها الفصل السادس .
٢ - اعني اتباع يسوع الناصري .

اعمال الرسل

لنا ان نعود هنا الى القصص المسماة بأعمال الرسل . وكنا قد دققنا فيها عند مرحلة رجم اسطفانس واتبعناها بتقديم بولس . ومع ان مؤلف اعمال الرسل قاصّ جيد كلوقا الا انه كان هنا أضعف منه كثيرا كلوقا ايضا في قوة الفكرة منه في فن الادب التخيلي . ومن هذا نجد الناس الذين يغرمون بالقصص ويتجافون اللاهوت يعززون تأليف اعمال الرسل الى لوقا ايضا في حين انكر اللاهوتيون البولسيون الكتاب برمته ورموه بالزيف لان بولس وكل الرسل في الواقع ظهوروا فيه وكانهم «بعثيون» (1) مبتدلون عاديون يجتذبون اهتمامنا ويلفتون أنظارنا بما لقوه من مغامرات ومفاجآت اكثر مما يجتذبونه بفضائل الفكر وبفضائل الخلق . ولولا انهم رسل لكانت فكرتنا عنهم والحق يقال هزيلة جدا . وقد وصّف بولس بصورة خاصة بأنه موجد موضة ظلت شائعة دارجة الاستعمال حتى يومنا هذا ، ففي كل مرة يخاطب جمهورا تراه يسهب بحرارة عظيمة في ذكر آثامه قبل هدايته الزائفة مستهدفا القاء حالة قداسته الحاضرة الى راحة نفس أقوى عودة . انه ليفصل في حكاية تلك الهداية مرة بعد اخرى ينتهي باستنهاض همم سامعيه للانضواء الى لوائه حتى يحققوا خلاص انفسهم ويهدد بالعقاب الالهي الذي ينتظرهم ان هم رفضوا السير وراءه . واليوم تستمع الشيء نفسه من اي اجتماعي «بعثي» وترى الاهتداءات نفسها تتبعه . انه لأمر طبيعي ليس الا . غير انه لا يشبه تعاليم المسيح الذي لم يحدث الناس في خطبه عن سيرته وحياته الخاصة . ولم يعمد مطلقا الى «اصعقاد» نفوس

1 - اي : المؤمنون بالعودة الى الحياة ثانية .

المستمعين الى حد الهسترة . ان هذه الاجتماعات ترمي السى
التأثير على الاعصاب ليس غير ، ولا تحمل في طياتها التنسور
وإضاءة الطريق ، وأعظم الناس جهلا ما عليه الا ان ينتشي بزهوة ،
ويتوهم ان رضاه عن نفسه ان هو الا من روح القدس ليكون
«رسولا مجازا» ولا علاقة لهذا كله مطلقا بمبادئ المسيح المعروفة .
قد يكون «الروح القدس» ناشطا في كل ما حولنا ، يخلق المعجز
من الفن ، والعلم ، ويقوّي من عزائم البشر ليتحملوا مختلف انواع
الشهادة ، لاجل توسيع دائرة المعرفة وإخصاب الحياة ، وجعلها
اكثر غنى وزخما «حتى تكون لكم حياة اكثر غزارة» الا ان الرسل
كما وُصفوا في «الاعمال» تراهم لا يسهمون في هذا النضال الا
بوصفهم ادوات لعنة وتعذيب ، والى يومنا هذا ، عندما تكون
لخلفائهم اليد العليا كما في جنيف (١) «انظر نوكس في : مدينة
المسيح المثلى» (٢) وفي اسكتلندا وأولستر ، فان كل نشاط روحي
يقمع ما عدا جمع المال والدوام الى الكنيسة . والزنادقة يضطهدون
اضطهادا لا هوادة فيه ، وتمع الحياة التي يتباعها المال مثلا تمنع
وتحبس الى درجة يضطر معه حائزوها الى المضي قدما في جمع
المال لانه ليس ثم ما يعملون سوى ذلك . وكل التعويض السلبي
تناله عن هذا الحرمان هو تصورك الجنوني من جهة ، بأنك صفي
الله وانك صاحب مقعد محجوز في السماء ، ومن جهة اخرى لان
اكبر المفتنين بالنفس جنونا لا يستطيع ان يقضي عمره مفتونا
بنفسه ، فأقل المحرضات براءة وهي عقاب الآخرين لافتقارهم الى
الاعجاب بذلك المفتون ، والتشهير بأثام الناس الذين هم بدرجة
من الذكاء بحيث لا يملكون معها قدرة على معاناة الايمان الممل بكونه
أقوم الناس واكثرهم تعرضا لجمال اعمال الروح القدس ونعمه .

١ - مركز الكالفينيين .

٢ - (١٥٠٥ - ١٥٧٢) مصلح بروتستانتى اسكتلندي .

حتى هؤلاء يحاولون العيش حياة اكثر غزارة واقرب الى الواقعة . ان اللهو الكريه واعني به تخويف الاطفال بأهوال جهنم هو واحدة من امثال تلك التسليات وربما كان اقبحها واكثرها ازعاجا . والحاصل الصافي هو ان مقلدي الرسل ، سواء اطلقت عليهم اسماء (الهولي ويلز) (1) او سميتهم (ستكنيز) (2) استهزاء واستصغارا ، او (البيوريتان) (3) او القديسين ، اعجابا وتقديرا ، فهم مكروهون جدا خارج جماعتهم مثلما هم داخل جماعتهم والى مدى كبير ! على انه ليس ثم من يمقت يسوع مع ان كثيرا ممن عذب في طفولته باسمه يدخل في عداد كرهه كل ما له علاقة بالدين في حين تجد الآخرين الذين لا يعرفونه الا بالصورة الخلابه التي وصفت لهم ، اي بانه مسالم رقيق العاطفة زاهد ، تراهم يدخلونه في عداد الكره العام الذي يحفظونه لامثال هذا النموذج من الشخصيات . وعلى المنوال نفسه ان الطالب الذي وجب عليه ان يحفظ شكسبير ويتدارسه في الكلية توصلا الى النجاح فسي الامتحان قد يكره شكسبير ويمقتة . وتجد الناس الذين يكرهون التمثيل المسرحي قد يحشرون مولير فسي عداد المكروهين من هذا الصنف مع انهم لم يقرأوا منه سطرا واحدا او يشاهدوا مسرحية واحدة من مسرحياته . لكن ليس ثم انسان له بعض

٢٠١ - ما يدعى بـ Holy Willies او Stigginses اسمان يطلقان مزاحا وسخرية، على الاشخاص المتظاهرين بالصدق والاستقامة والترفع عن الدنيا والاشباب من الناس من قصيدة روبرت برنز «صلاة هولي ويلي» ومن مستر ستكيل وهو شخصية في رواية (اوراق مستر بيكويك) لشارلز ديكنز .

٣ - The Puritans هم لمة دينية متحمسة متعصبة انشقت عن سائر المسيحية الانكليزية في القرن السابع عشر وناصبت كنيسة انكلترا العدا . واتخذت التوراة دليلها الاوحد .

وقوف على شكسبير او المام بموليير يستطيع ان يبفضهما او ان يقرأ دون شعور بالالم والاستنكار وصفا او شرحا لإهانة اصييا بها او لتعذيب كابداه ، او قتل نالاه . والقول نفسه يصدق على يسوع . غير انه يجب ان يبذل المرء اعنف ما يمكن من جهـد وجداني ، ليمتنع عن الهتاف «يستاهل ا» عندما يقرأ قصة رجم اسطفانس ! ليس ثم من اهتم قلامة ظفر باستشهاد بطرس فهناك اناس كثيرون هم اكثر منه صلاحا ماتوا ميتات اشنع من ميتته مثل هيولاتيـمر (1) الصادق الامين الذي احرقناه . فهو يسوي خمسين اسطفانس واثني عشر بطرس ! ان المرء ليشعر اخيرا بأن يسوع بدعوته بطرس من زورق صيده ، افسد صيادا امينا مخلصا ولم ينحت من هذا النكود شيئا يزيد عن «تاجر خلاص» .

الخلاف حول العماد والتجسد

في الوقت نفسه كانت العاقبة المحتومة لتبد مبادئ يسوع والعودة الى يوحنا المعمدان هي ان اهتداء الوثنيين الى النصرانية بات اسهل من اهتداء اليهود اليها . ولم يصر بولس رسـولا للوثنيين الا باتباع خط يمتاز بأقل المقاومة . كان لليهود فريضتهم الخاصة للشهود هي فريضة الختان . وكانوا شديدي التمسك والتقيـد بها لانها العلامة الفارقة التي تدل على انهم (شعب الله المختار) وبها وحدها يتميزون عن الوثنيين الذين هم في عرفهم ذوو غلـف (قلف) لا غير . ولما وجسد بولس ان العماد يعبـسـد طريقه بين الوثنيين ويجعله اسرع مما هو بين اليهود لانه سهل

١ - (١٤٨٥ - ١٥٥٥) اسقف انكليزي احرق حيا بتهمة الزينج والهرطقة في عهد الملكة ماري الاولى الكاثوليكية بعد ان رفض انكار عقائده البروستانتية .

على الآخرين الادعاء بانهم هم ايضا مطهرون بمراسيم قررها نص
ارفع مقاما واقرب عهدا من المراسيم الموسوية ، اضطر الى الاقرار
بان الختان ليس مهما . وهذا عند اليهود تجديف لا يسعهم
الاغضاء عنه . اما الوثنيون امثالنا ، فعندنا اليوم ان الكثير من
«الرسائل الى اهالي رومية» (١) هي مملة الى الحد الذي تتعذر
معه قراءتها لانها تتضمن محاولة خائبة من بولس لتحاشسي
الاستنتاج بان الرجل اذا عمد فلا يهم مطلقا موضوع ختانه اكان
مختتنا ام غير مختتن . ويؤمن بولس ان الختان شيء ممتاز بحد
ذاته عند اليهودي . ولكن اذا لم يكن له اي تأثير في مسألة
الخلاص ، واذا كان الخلاص هو الهدف الوحيد الضروري (وبولس
ياخذ بالفرضين معا) فان دعوته الى التساهل زادت من عزم
اليهود على رجحه .

هكذا وجدنا مسيحية الرسل منذ اولها تتعثر وتتفاقم
مشكلتها بالخلاف الدائر حول ما اذا كان الخلاص يتم الوصول اليه
بعملية جراحية ام بصب الماء ؟ وهما من قبيل الشعائر لا غير ما
كان يسوع ليبدد فيها عشرين كلمة . وفي الازمنة المتأخرة عندما
غزا المذهب الجديد الغرب الوثني حيث لم يكن لهذا الخلاف في
الشعائر اي مجال حيوي في التطبيق العملي ، فان الفريضة
الآخري وهي «اكل الله» (٢) ولدت نزاعا اعظم وانكى . اذ انشأت
اسبابا شنعاء مخيفة للاضطهاد والتنكيل والبغضاء والتقتيل وكل

١ - جزء من اعمال الرسل وتتضمن الرسائل التي كتبها الرسول بولس الى
اهالي رومية المسيحيين الاوائل اجوبة عن استفسارات تتعلق بالدين والمعاملة .
٢ - اشارة الى ان تناول الخبز والخمر عند المسيحيين في احوال دينية
مخصوصة يمثل اللبحة الالهية اي التضحية بجسد المسيح ودمه ثم اكل الضحية
كما كان يجري قبله . فقد اثر موضوع مشوي وهو هل ان المادة الالهية تهضم
عندما تنزل الى المعدة والامعاء كالطعام العادي وتسري عليها التحولات نفسها ؟

ما كان يسوع يشتمز منه . كان موضوع الخلاف في هذه الفريضة لا يتضمن تأدية الفريضة أو عدم تأديتها . بل هل ان هضم المادة الالهية معديا هو مجازي ام حقيقي ؟ الا ان التعييدات التي لصقت بالدين الجديد قبل هذه المسألة بزمن طويل هي التي خلقت المتاعب فولادة المسيح من العذراء (كانت في السابق تنظر ببساطة كمعجزة شائعة في مبدا الامر) لم يتركها اللاهوتيون في بساطتها هذه وانما بدأوا يتساءلون من اية مادة كان الجنين يسوع وهو في رحم العذراء ؟ ثم لما اضيفت عقيدة الثالوث ؟ برز السؤال التالي : هل العذراء هي والدة الله ام والدة المسيح فحسب ؟ فظهرت على اثر ذلك الانشقاقات الأريوسية والنسطورية من هذين السؤالين وراح زعماء هذه الانشقاقات وغيرها يقطع (يحرم) احدهم الآخر ويقضي بحرمانه لكل حقد وفظاظة حسب حظوظ كل في اجتذاب الاباطرة كل الى صفه . وفي القرن الرابع بدأ يحرق احدهم الآخر للاختلاف في الرأي حول هذه الامور نفسها . وفي القرن الثامن جعل شارلمان الديانة المسيحية اجبارية بقتله كل من يابى اعتناقها . ومع ان هذا كان ختاماً للهداية الاختيارية الى الدين فمن حق شارلمان ان يفخر بأنه اول مسيحي كان يأمر بقتل الناس بسبب نقطة جوهرية في العقيدة حقا . وابتداء من عصره فصاعداً أض تاريخ الصراع المسيحي مخضبا بالدم مشتعلا بالنار ، مثقلا بأوضاع التعذيب والحروب ، كالحروب الصليبية والاضطهادات الالبيجية (1) ومسا اليها ، وكمحاكم التفتيش والحروب الدينية التي عقبها الاصلاح كلها تبدو ظاهرة مسيحية عادية . لكن ليس ثم فينا من يشك في ان يسوع كان سيشجبها مستفظعا مشتمزا . ان فكرتنا الخاصة حول مذبحة سان بارثولوميو (2) تقول بأنها انتهاك لحرمة الدين

١ - طائفة دينية نبغت في القرن ١٢ حتى ١٤ في جنوب فرنسا . اضطهدتهم الكنيسة الكاثوليكية وقضت عليهم .

٢ - هي مذبحة البروتستانت في فرنسا .

المسيحي ، في حين ان حروب غوستاف ادولف (١) بل قولنا ان حروب فردريك الاكبر انما هي دفاع عنها ، له فكرة سخيفة بمستوى سخف الفكرة العاكسة القائلة بأن فر هذا ، كان ضد اليسوعيين نظرا للمسيح وتوركو وما واغناطيوس ليولا رجلان يماشيان ذوق يسوع تماما ! ه الناس واعمالهم لا تربطها اية علاقة بيسوع . ومن المحتم لود رئيس الاساقفة وجون ويزلي مائسا وكلاهما مقتنع ب ذلك الذي باسمه جملا نفسيهما مشهورين على الارض ، سيتا بذراعين منبسطتين في السماء ! ان جورج فوكس الز الكويكري كان عنده عشرة امثال ما كان عندهما من حظ هذا فقد جعل من حياته عملا بائسا حقيرا لا يسوى شروى ا مهما يكن من امر فكل هذه الانحرافات في دين يسوع استمدت قوتها الادبية من رصيده ، وكان عليها والحالة ها تبقي انجيله حيا . عندما ترجم البروتستانت التوراة الى ا العامية واطلقوه سائبا بين الناس ، اقدموا على عمل في غا الخطورة كما برهن عليه الضرر الذي تلا ذلك . على انهم ب هذا اطلقوا اقوال يسوع وصول وتجول في مباراة حرة مه مع اقوال بولس والكوهيلت (٣) وداود وسليمان ومؤلفي ايوب وكتاب اسفار العهد القديم الخمسة الاول (٤) ولقد كيف بدا يسوع الاسم الفائز عليهم . ان التناقض الصارخ تطبيقات كل الدول والمذاهب ، وبين تعاليمه لم تعد سرا مكا ومع ان تسعة عشر قرنا مرت على ولادة يسوع (من المستفرد يزعم تاريخ ميلاده في السنة السابعة ق.م مع ان بعضهم انه جاء في السنة ١٠٠ ق.م !) ومع ان كنيسته لم تقم ب

١ - ملك السويد .

٢ - رئيس محاكم التفتيش في القرن الخامس عشر .

٣ - اسم عبراني للحكيم الذي ذكرت تعاليمه في سفر الحكمة من التو

٤ - وهي : سفر التكوين ، والخروج ، والاحبار ، والعدد ، وثنية الاد

ونظامه السياسي لم يوضع موضع تجربة حتى الآن ، فان افلاس كل الانظمة الاخرى عندما جرى تدقيقها على ضوء احصاءاتنا الرئيسية الجوهرية ، انما تدفعنا دفعا لا هوادة فيه الى قبوله لا بوصفه كبش فداء بل بوصفه اقل بكثير من ساذج في المسائل العملية مما كان الجميع يظنونه الى حد الآن .

ما هو بديل المسيح ؟

الا دعنا نوضح موقفنا قليلا . يقص العهد الجديد حكايتين نوعين مختلفين من القراء : اولاهما القصة القديمة عن تحقيق خلاصنا بالتضحية والكفارة التي قدمها الإله المذبوح ذبيحا ببربريا والمبعوث ثانية في اليوم الثالث ، وقد قبلها الرسل على علاتها . ولم يكن فيها اية اهمية لآراء المسيح السياسية والخلقية ، فالفداء فيها كل شيء ونحن نحقق خلاصنا بمجرد ايماننا به لا بالاعمال او الآراء القائمة على الامور الواقعية المخالفة لرأي الفداء نفسه .

اما ثاني الحكايتين ، فهي قصة ذلك النبي الذي غم على عقله وجنّ بعد ان عبّر عن عدة افكار هامة بخصوص السلوك العملي (الشخصي منه والسياسي ذي الاهمية القصوى في يومنا هذا) وبعد ان امر رسله بالتمسك بهذا السلوك في حيواتهم اليومية ، ثم توهم نفسه انه سُكِلَ أسطوري خام من اشكال الله . واندفع بتأثير هذا الوهم باحثا عن مينة قاسية ، فتجرع آلامها معتقدا انه سيقوم من بين الاموات ويأتي ممجدا لبتربع عرش الحكم في دنيا جديدة . فبهذا الشكل نجد آراء بسوع السياسية والاقتصادية والخلقية ذات اهمية وامتاع بوصفها مرشدا ودليلا الى السلوك . اما ما تبقى فهو مجرد اوهام وتخريف . اما روايات القيامة ، والولادة من العذراء والمعجزات التي تفوق غيرها في صعوبة الايمان بها فقد نبذت كلها واطرحت جانبا بوصفها مجرد تلفيق .

السذاجة ليست مقياسا

هذا القبول الاعتباطي ، والرفض الاعتباطي لاجزاء مسن الانجيل ليس غريبا من وجهة النظر الدنيوية . ولقد رأينا لوقا ويوحنا برفضان حكاية متى عن مذبحه الاطفال والهرب الى مصر رفضا لا توجس فيه ولا حذر . اما القول ان مخطوطة متى هي سجل حرفي دقيق للوقائع لا يرقى اليه الشك ولا يخضع لاي من الاخطاء التي لا يخلو منها كل مؤرخي هذا العالم ستجعل يوحنا يبذل بعينه مذهولا غير مصدق . فهو الى حد ما خيال عصري يستهوي اناسا ناقصي التدريب ثقافيا ، ممن يضعون التوراة على نفس الرف الذي يضعون فوقه كتاب (حظوظ نابوليون) و(تقويم مور القديم) و(مختصر طرائق العلاج بالاعشاب الطبية) (١) . قد تكون (خلاصا) متعصبا وترفض من حكايات المعجزات اكثر مما رفضه هكسلي (٢) وقد ترفض يسوع رفضا مطلقا بوصفه (مخلصا) ومع ذلك فانك تستشهد به وتتخذة دليلا تاريخيا على احراز البشر اعجاب القوى لصنع المعجزات «المسيح العلمي» (٣)

١ - هذه هي عناوين كتب صنفت لاناس يؤمنون بالخرافات وهي كتب طوائع وفال او وصفات طبية تؤخذ من اعشاب وانبثة عادية تعزى اليها قوى شيطانية عجيبية .

٢ - T.H. Huxley (١٨٢٥ - ١٨٩٥) كاتب انكليزي في مواضيع فلسفية ودينية وعلمية يصف نفسه بالفنوصية . اعني بذلك الذي افتنع بانه لا يمكن التوصل الى (معرفة : Gnosis) اي شيء عن وجود الله او عدم وجوده بشكل مادي محسوس ، وخر كتبه هو «مكانة البشر مسن الطبيعة» **Man's Place in Nature** كتبه في ١٨٦٣ .

٣ - وهي ما يطلق عليه **Church of Christ Scientist**

ويسوع المهاتما انما يبشر بسبه من كان بطرس سيصعقهم موتى
 لانهى اعظم كفرا والحادا من شمعون الساحر العظيم ، والالام
 (الكفارة) يعظ بها الكهنة الممعدانيون جماعة المؤمنين الذيسن
 لا تختلف وجهة نظرهم في الاعاجيب عن وجهات نظر انغرسول(١)
 وبرادلو (٢) . ان لوثر الذي كنس القديسين كنسا مع ملايين من
 معجزاتهم ، وانزل العذراء المباركة نفسها الى مقام وثن من الاوثان،
 ركز عقيدة الخلاص تركيزا جعل معه شر القتل ، واشنع السفاكين
 يسقطون راسا بين ذراعي يسوع اذا هم آمنوا بها وحبل المشنقة
 ملتف حول اعناقهم في حين يسقط نوم بين وشللي نسي
 حفرة لا قعر لها ليحترقا هناك الى دهر الذاهرين . والطبيعيون
 المحدون امثال سر وليام كروكس يبرهنون بمساعدة التجاريب
 المختبرية ان وسطاء الارواح من امثال دونكلاس هوم يستطيعون
 ان يجعلوا مؤشرا في ميزان حلزوني يدور دون ان يلمس الثقل
 المتدلي منه !

الايمان بالخلود الشخصي ليس معيارا

حتى الايمان بخلود الفرد ، فهو ليس معيارا قط . ان

-
- ١ _ Robert Green Ingersoll (١٨٢٣ - ١٨٩٩) كاتب امريكي تقدمي
 دارويني النزعة وقانوني ومحام حمل على حرفية التوراة والاناجيل وانتقدهما
 انتقادا شديدا على ضوء المنطق .
- ٢ _ Charles Bradlaugh (١٨٢٣ - ١٨٩١) مصلح اجتماعي انكليزي ،
 ومن مشاهير العقلايين . انتخب عضوا للبرلمان في (١٨٨٠) لكن لم يسمح له
 باحتلال مقعده البرلماني لرفضه اداء القسم الديني التقليدي بالاخلاص .

التيوصوفيين الذين يرفضون الغداء بالاستنابة رفضا شديدا ،
ويصرون بأن اصغر آثامنا تأتينا بما يدعى الكارما (1) الخاصةبها،
كذلك تراهم يصرون على التناسخ وخلود الروح الانسانية حتى
يعدوا ميدانا لا حدود له للكارما ليصل اليها الخاطيء الذي لم
يتم خلاصه . ان الايمان بدوام حياة الانسان بعد ان يسجي في
القبر ، لهو اعتقاد اقرب الى الحقيقة عند مستحضري الارواح
بطريقة المائدة مما هي عند المسيحيين العاديين . والفكرة القائلة
ان اولئك الذين يرفضون المشروع المسيحي او اي مشروع غيره
حول الخلاص عن طريق الغداء يجب ان يرفضوا ايضا الايمان
بخلود الانسان وبالمعجزات بوصفهما امرين لا يستندان الى الواقع
كالفكرة التي تقول : اذا كان المرء ملحدا فانه سيسرق ساعتك !
في مقدوري ايراد تشابه من هذه الامثال الى حد اصابتك
بالملل . والاختلاف الاساسي لم يكن الاختلاف ما بين الايمان
بالكائنات الفائقة للطبيعة والحوادث الخارقة للعادة ، وبين الرأي
الاكثر تزمنا للايمان ، الذي ينظر الى الايمان بوصفه اهدارا لقيم
السلامة الفكرية . انه الاختلاف بين قوة فاعلية عملية «الصلب»
بوصفها دواء لا يخطيء في معالجة الخطيئة وبين عجز فطري عن
فهم هذا ، او عن الرغبة في الايمان به وهو عين الشيء .

النظرية العلمانية طبيعية وليست عقلية فهي لهذا ، حتمية

علينا اذن ان نأخذها حقيقة جوهرية صريحة ، رغبتنا في ذلك

١ - الكارما Karma وهي نوع من الشيوصوفية (تقدم شرحها)
معيدة هندوسية بوذية تقول ان الانكامل (الحالات) التي يتخذها الوجود البشري
بالتعاقب ترتفع وتنحط بالنسبة الى صلاح الشخص او فساده في مراحل
حياته السابقة .

أم كرهنا . فكما ان كثيرين منا لا يسعهم الايمان بأن يسوع حكيم
 قبضته القريبة ، على ارواحنا بطريقة العاطفة والمشاعر لا غير .
 كذلك لا يمكن ان نصدق بأنه كان (جون بارلي كورن !) وكلمنا
 كان عقلنا ودراستنا يؤديان بنا الى الاعتقاد بأن يسوع انما كان
 يتكلم بأعمق الآراء والافكار السليمة عندما يبشر بالشيوعية ،
 وعندما يصرح بأن الحقيقة التي تكمن وراء الايمان الشائع بالله ،
 انما هي الروح الخلاقة المستقرة في انفسنا والتي سمّاها هو
 (بالاب السماوي) وسميناها نحن (بالارتقاء) او بالقوة الفاعلة الحية
 Elan Vital وغيرها من الاسماء . وعندما احتج يسوع على
 ان الزواج والاسرة يسلبانا ذلك الجزء السامي من حيويتنا التي
 قصد بها خدمة ابيه السماوي ، نقول كلما ادى بنا عقلنا ودراستنا
 الى هذه النتائج ، وكلما تعذر علينا الاعتقاد بأنه كان يتكلم بسلامة
 تفكير عند اعلانه بتك الصورة المفاجئة عن نفسه بأنه هو الله
 بالذات متجسدا ، وان لحمه ودمه هما الطعام العجائبي الذي
 يجب ان نتناوله ، وانه سيقوم من بين الاموات بعد ثلاثة ايام وان
 النجوم ستساقط من السماء عند مجيئه الثاني وسيملك على
 فردوس ارضي . ولكن من السهل المعقول ان تعتقد باحتمال اصابة
 مرهق الاعصاب بالجنون كما اصاب سويغت ونيتشه ورسكين .
 ولكل بيمارستان نزله الذي يعاني من وهم كونه إلهًا ، في حين
 انه انسان عاقل فيما عدا هذه الفكرة . نزلاء المارستانات هؤلاء
 لا يصرحون بانهم سيقتلون قتلة شعاء ويقومون من بين الاموات .
 ذلك لانهم لا يملكون التقليد القديم القائل «بالمصبر الإلهي» على
 انهم يزعمون لانفسهم كل ما يتعلق بالالوهية مما يقع في حللود
 معرفتهم . وهكذا فالاناجيل التي هي كمدكرات وخواطر موحية
 لعقيدة بيولوجية واجتماعية وثيقة الصلة جدا بالمدنية الحديثة ،
 وان انتهت بتأريخ لوهم مرضي ، فهي والحالة هذه ، مفهومة
 معقولة مشوقة للمفكر العصري . على انها غير مفهومة ولا معقولة
 تحت أي ضوء آخر تضعها ، الا لدى اناس يفرض الوهم نفسه
 عليهم فرضا .

الفصل العاشر

النقد الاعلى

سيواصل علم نقد الكتابات الغابرة ، والابحاث التاريخية دون الشك ، البرهنة على ان الاناجيل هي كالعهد القديم قلما اوردت حكاية فريدة في بابها ، او شرحت مبدا فريدا في بابه . وان هذين السفرين كثيرا ما يقدمان لنا استطرادات ، واخلاطا من تقاليد وعقائد لا يجمعها جامع ، ولا تشدها رابطة قط . هذه الثغرات وان كانت من الناحية التكنية تسترعي اهتمام الباحثين وترضي او تسخط (حسب كل حالة) الناس الذين يدافعون او يهاجمون التحصينات الورقية ! لعصمة التوراة ، وتنزهها عن كل نقد ، فانها تكاد تكون بعيدة تماما عن الغاية التي ارمي اليها في هذه الصفحات . لقد ذكرت ان معظم المرجعيين والثقة يتفقون الآن على ان تاريخ ميلاد يسوع يمكن تحيئه في حدود السنة التي اعطيناها رقم ٧ ق.م حسب التقويم الميلادي . الا انهم لا يؤرخون

رسائلهم بناء على ذلك بالسنة ١٩٢٢ م (١) ولا اظنهم يتوقعون مني ان افعل ذلك . فما انا في سبيله الآن هو نقد بمفهوم الكانتية للشكل الثابت من الاعتقاد الذي بات جزءا فعليا من نسيج قرالي العقلي . ولاكونن من أشد المعابشين والدلييين ازعاجا اذا عمدت الى الانحراف نحو انتقاد عقيدة أخرى او «لا عقيدة» قد ينخيل قرائي انهم مؤمنون بها لو كانوا من المؤرخين او الباحثين الواسعي الاطلاع في مخطوطات العهد القديم . وفي هذه القضية ، والشيء بالشيء يذكر - كان عليهم ان يبتدلوا آراءهم كثيرا والى درجة وجب ان يستحوذ الإنجيل الذي تدارسوه في صغرهم ، على افكارهم ويملك مذاهبهم ، باستمرارته الفائقة الحدود . ان فوضى الوقائع المجردة في «الموعظة على الجبل» و «صفات الاحسان» (١) اللذين لا يوحيان ولا يثيران الا خلافا حول ما اذا كانتا اضافتين الى الاصل ام هما جزء من الاصل ؟ وفي ان يفندو يسوع فهو مجرد اسم يشك في انه يعود الى عشرة انبياء مختلفين او اشخاص تم تنفيذ حكم الموت بهم . وفي ان يكون بولس الرجل الوحيد الذي تستبعد كتابته سفر (اعمال الرسل) المعزو اليه ، وفي ان نحثى على رؤوسنا ما كتبه حكماء الصين وفلاسفة اليونان ومؤلفو اللاتين وكتاب النقوش الكتابية القديمة المجهولة المصدر ، بوصفها مصادر هذا السقط من التوراة او ذلك وكل هذا ليس بالدين في شيء ، ولا هو بنقد للدين كذلك . ان المرء لا يمكن ان يتأكد - بمثابة حقيقة واحدة - ان جزءا كبيرا من بناء

-
- ١ - لما كان شو قد كتب افكاره هذه في ١٩١٥ ، فهو يضيف اليها السنوات السبع التي افترضها ناقصة عن التاريخ الميلادي .
- ٢ - الموعظة على الجبل في متى (فصل ٥-٧) وفي لوقا (فصل ٦) . اما عن صلاة الصدقة فهي في الفصل ٦ من متى .

كاندراية بيتر بورو سيء العمارة ، وان المواد التي استخدمت في بنائه غير جيدة ، كما يستطيع مثلا انتقاد مواعظ الاسقف . اننا جعلنا من الاثر الادبي الذي نسميه التوراة ضدا منافسا ، اخيرا كان عملنا أم شرا . ومع ان اكتشافتك الكثير من البناء الزائسف الواهي في جسم التوراة هو عمل شيق بحد ذاته (لان كل مسا يدور حول التوراة هو شيق) فان ذلك لا يغير «ضد النقيض» (١) نفييرا ماديا كبيرا حتى عند علماء المخطوطات القديمة ، كما لا يغيرها ابدا في نظر اولئك الذين لا يعرفون عن علم المخطوطات القديمة اكثر مما يعرفه رئيس الاساقفة اوشر (٢) ولذلك تجدني قد اشرت الى قدر من المستكشفات يزيد قليلا عما قد يستطيع رئيس الاساقفة اوشر التوصل اليه لو قرأ التوراة دون تحيز .

والباقيين تناولت ذلك «النقيض» كما يعيش ويعمل في الناس فعلا . ومهما يكن فالنقيض هو ما تريده انت : انسه القضية التي يترتب عليك ان تحكم عقلك فيها . وقد وصلت الى موضوع يسهل عليك ادراكه . وحتى لو كان احترامك للسير المصطنعة اكثر قليلا من احترامك للمطاط الاصطناعي والحليب الاصطناعي مما سيجعلنا نضع مختلف انواع البشر كما يصنع الحلواني مختلف انواع الكعك ، فان الموضوع الحيوي العملي ما زال مطروحا امامك بالوضوح الذي طرح امام معظم العباد السذج وهو ما يصفه كبار الاحبار «بالنقد العالي» .

١ - وهو ما يدعى بالديالكتيك Synthesis .

٢ - James Ussher (١٥٨١ - ١٦٥٦) وليس اساقفة ارماغ في

ايرلندا . واضع نظرية مؤداها ان تاريخ الخليقة يبدأ في العام ٤٠٠٤ ق.م . هذا التاريخ قبله عدد كبير من المسيحيين بعد موته . الا ان الابحاث الجيولوجية ما لبثت ان دحضت مزاعمه واثبتت ان بدء الحياة على الارض يعود الى اكثر من مليوني سنة .

مخاطر عقيدة الخلاص

ان النظرة العلمانية في يسوع تتميز تعزيزا قويا في ايماننا هذه بزيادة عدد الاشخاص الذين يملكون وسائل لتدريب انفسهم وتعليمها الى الحد الذي لا يعودون معه يخشون النظر الى الوقائع دون وجل حتى تلك الوقائع المخيفة كالخطيئة والموت . والنتيجة هي زيادة القسوة والصرامة في الفكر الحديث . لقد اخذ ينتشر كثيرا الاعتقاد بأن باستطاعته ان يجعل ذنوبه اشد بياضا مسن الثلج بالغ ما بلغت من الاحمرار بممارسته رياضة بسيطة : هي رياضة الاعتزاز بالنفس . هذا الاعتقاد يتضمن تشجيعه على ان يصير ندلا وغدا . والنتيجة لا تكون سيئة جدا ان استطعت ايضا التاكيد له وجدانيا بأنه لو ترك نفسه تؤخذ على حين غرة بالموت قبل ايمانه ، فان جهنما حمراء سنشويه شيئا ، وهو حي الى ابد الأبدين ! في تلك الايام الخالية كان موت الغفلة وهو خير ما نحسد عليه المرء من الميتات ، يعتبر من افظع الرزايا التي تحل بالانسان . هذه الميتة كانت توضع في صلواتنا بين قائمة الكوارث كالطاعون والوباء والمجاعة والحرب ، والقتول . الا ان الاعتقاد بمثل (جهنم) هذه اخذ يتلاشى بسرعة ، وقد تخلص منه كل قادة الفكر ووصل ذلك الى العامة وتفشى فيهم وهرب هذا النوع من الايمان الى تلك الاجزاء التي ما زالت تعيش في جو القرن السابع عشر ، من ايرلندا واسكوتلندا . حتى هناك ، فان المفهوم الضمني لهذا الاعتقاد هو انه من شؤون شخص آخر لا من شؤونك انت !

اهمية جهنم في مبدأ الخلاص

ان جدية التخلي عن فكرة جهنم والتشبيث في الوقت نفسه بالفداء ، هي مما لا سبيل الى نكرانه . ان لم يكن ثم عقاب على

لائم فليس في الامكان ان تكون هناك جهنم وبالتالي ليس ثم اية فرصة في معاناة المشاق والمصاعب بنسيان الواجب ، اذ بإمكاننا والحالة هذه ان تكون اشرا را بقدر ما نرغب مع حصانتنا حتى من تأنيب الضمير ولوم النفس الذي يصبح مجرد انكار لطيف لسنة (الفادي) . وهي الحصانة التي يضمنها لنا القانون الوضعي . ومن جهة اخرى : لو لم يدفع المسيح عنا الحساب فان هذا الحساب سيظل في ذمنا وفي اعناقنا . ومثل هذه الديون تجعلنا غير مباحين الى اقصى حد . ان الاندفاع الى «الارتقاء او التحول» الذي نسميه بالضمير والشرف يتوازن على هذه المزالق فيصيبنا بأعظم الخجل لاننا انحططنا الى مثل هذا الدرك بحيث اجبرنا على اتيانها . ان اللص الذي «نال الخلاص» (1) ، خالجه فرح غامر لا يمكن ان يخالجه الملحد المستقيم السيره ، مما يفريه بمعاودة السرقة ليتكرر عنده هذا الشعور الرائع بالفرح . لكن لو سرق الملحد قلن يتكون لديه مثل هذه السعادة : انه لص وهو يعلم بأنه لص وليس ثم ما يمكن ان يزيل تلك الصفة عنه ، وقد يحاول ان يخفف من شعوره بالعار بنوع من التعويض المادي او بممارسة عمل من اعمال الخير يقابله ، الا ان ذلك لا يفري من الحقيقة وهي انه قام بارتكاب جريمة السرقة ولن يرنح له ضمير حتى يتغلب على ارادته في السرقة وينقلب انسانا مستقيما بتطوير الشرارة الالهية في داخله ، تلك الشرارة التي اصّر يسوع على انها حقيقة مستمرة يومية وهذا ما يرفضه الملحد .

ومع ان حال المؤمنين بوجود عقيدة القداء قد تكون افضل ، الا انها بالتأكيد ليست بالمرغوبة من وجهة نظر المجتمع . ان مسألة

١ - يقصد (لص اليمين) الذي آمن وهو مصلوب مع يسوع فقال له يسوع :
«اليوم ستكون معي في الفردوس» .

كون المؤمن اكثر سعادة من الشاك ليست اصدق من حقيقة كون
السكران اكثر سعادة من الصاحي . وسعادة الايمان الساذج هي
من الفضائل الرخيصة والخطرة، وهي ليست ضرورة من ضرورات
الحياة مطلقا . ان موضوع نيل سقراط سعادة من الحياة بقدر ما
ناله ويزلي إنما هو موضوع مشكوك فيه . الا ان وطننا كل اهله
يشبهون سقراط قد يكون اكثر امنا واسعد حالا من وطن كسل
سكانه يشبهون ويزلي . وسيكون افراده اعلى درجة في سلم
الارتقاء . وفي جميع الاحوال فان آمالنا الآن تركز في الرجل
السقراطي وليس في الرجل الوبزلي .

الحق في رفض الفداء

وبناء على هذا ينبغي لنا ان نقطع ما بيننا وبين الايمان بالفداء
وان كان ممكنا عقليا بالنسبة الينا جميعا ، وان حقنا في هذا
واضح . فلكل من يعرض عليه «الخلاص» حق طبيعي ثابت غير
مجزا في القول : «كلا وشكرا ، اني افضل الاحتفاظ بمسؤوليتي
الادبية كاملة ! وليس بالذي يصلح لي ان اكون قادرا على ان
احمل كل آثامي ظهور كباش فداء . اذ سأكون اقل حذرا في
ارتكاب تلك الآثام عندما اعلم انها لن تكلفني شيئا» . ثم هناك
موقف إبسن ايضا ذلك الاخلاقي الذي قدّم من الحديد . ففي
رايه ان مبدأ الخلاص بأسره ، ان هو الا محاولة جنسية لخداع
الله . اعني دخول الجنة مجانا دون دقّ الثمن . ان يصفخ
منك . . . ان تسترحم فتفوز بالحياة الابدية كهدية ، بدلا من ان
تكدح وتعمل في سبيلها ، لهو امر بدرجة كبيرة من الوضاعة ،
حتى عند قبولنا سخيرية تلك القوى التي نقايض نحن برحمتها
علينا . اما المساومة على تاج من المجد فوق كل هذا ! فهو مما لا
يستطيع إبسن احتماله ، ويستفزه الامر فيصرخ قائلا : «ان الهك

رجل شيخ وانت تقوم بفشه» ثم يهوي ضربا بسوط مجدول من العقارب (١) على ضمير القرن التاسع عشر الميت ليعيده السى الحياة .

تعاليم المسيحية

وهنا ينبغي لي ان اترك الامر الى الاختيار الذي يهفو اليه طبعك . ان المعلم المستقيم الذي يترتب عليه ان يعرف التلميذ المستجد بالحقائق عن المسيحية لا يستطيع حسب ظني ان يضع الوقائع بشكل يختلف عن الشكل الذي وضعتها به فوق اي اعتبار جوهري . واذا كان واجبا عليه انقاذ الاطفال من الملحد المهتدي من جهة ، ومن الراهبة المهتدية في مدرسة الدير من الجهة الاخرى فضلا عن جميع الوعاظ المستقرين فيما بين هذين الحدين، فمن الواجب ان لا يثقلوهم بالمتناقضات غير المجديسة من امثال التساؤل : اوجد شخص باسم يسوع ام لم يوجد ؟ عندما قال هيوم بان حروب ايشوع غير ممكنة فان (ويتلي) لسم يجادل في ذلك وبرهن بعين الطرق التي اتبعها هيوم بان حروب نابوليون هي الاخرى غير ممكنة ! ان الشخصيات الخيالية وحدها هي التي يمكن ان تصمد امام الاختبارات الشبيهة باختبارات هيوم وليس ثم ما يمكن ان يجعل (ادوارد المعترف) و(القديس لويس) شخصين حقيقيين لدينا كما كانت شخصيتا دون كيشوت ؟ ومستر بيكويك . علينا ان نضع حدا للملاحاة والمناقشة

١ - سفر الملوك الاول الفصل ١٢ : «ابى عاقبكم بالسوط ، وانا اماقبكم بالعقارب» .

٢ - انظر سفر الخروج وسفر يشوع في التوراة .

بالتصريح بوجود شواهد على وجود يسوع قدر ما يوجد على أي شخص كان معاصرا له . أما وأنت قد لا تصدق بكل ما يحدثك متى ، فهذا لا يدحض وجود المسيح أكثر من دحض حقيقة أنك لا تؤمن بأن كل ما يحدثك ماكولي إنما ينفي وجود وليم الثالث . وحكايات الانجيل بالاساس ، تقدم لك سيرة حياة قابلة للتصديق وممكنة التعليل على أسس علمانية صرفة . بعد تقليد كل ما رفضه الاخوان هكسلي او هيوم او غريم او روسو واعتبروه خياليا ، وقبل ان تبضي في دربنا أكثر مما مضينا أقول : بإمكانك ان تغدو تابعا ليسوع مثلما يكون في وسعك ان تغدو تابعا لكونفوشيوس ولك والحالة هذه ، ان تدعو نفسك باليسوعي او حتى بالمسيحي ان كنت مؤمنا (وهذا من حق أي علماني متمسك بعلمانيته) بأن كل الانبياء ملهمون من الإله ، وان كل ذي رسالة من البتر هو مسيح .

وعلى المعلم المسيحي بعد هذا ان يعرف الطفل بنسب (جون بارلي كورن) وبالحقول وفصول السنة بوصفها شواهد على حقيقته الخالدة ، ثم وبمراحل تكامل نضوج عقل الطفل (1) . يستطيع تعلم مبادئ (الفداء والهداية والخلص والقيامة ، والمجيء الثاني) كظواهر تاريخية وسايكولوجية وكيف ان يسوع في دنيا مشبعة بهذه المبادئ - قد قبل في معظمها بوصفه المسيح المنتظر منذ زمن طويل . ويسمح للطفل أيضا ان يقبل بـ «الفادي» الذي كثيرا ما تنبأ الانبياء بمقدمه . اما اذا كان كيانه قد بنى مثل كيان غلادستون فانه سيقبل يسوع كمخلص له ، وسيقبل بطرس وبيوحنا العمدان أولهما بوصفه كاشفا

١ - كلمة الطفل Child التي يستخدمها شو هنا لا تعني «الطفل» حرفيا وإنما تعني أبناء البشر الصالحين او الطالحين الذين يعتبرون «اطفالا» للمسيح.

لحقيقة المسيح وثنائهما بوصفه ممهدا سبيله . اما اذا كان بناء الطفل مثل بناء هكسلي فسيعتنق النظرة العلمانية رغم انفس الاسرة الورعة التقية ، وبصرف النظر عن كل ما تفعله للحيلولة دون ذلك . والامر المهم الآن ، هو ان لا يبدد الغلادستونيسون والهكسليون اوقانهم بعد الآن في المجادلة السخيفة حول خنازير الجدرين وان عليهم ان يفرروا بخصوص صحة المبادئ العلمانية التي جاء بها يسوع ، فهم حول هذه المبادئ يتصارعون فسي عصرنا هذا .

المسيحية والامبراطورية

ونتساءل اخيرا ، ما الذي حدث للخرافات القديمة حتى فقدت ماء وجهها بمثل هذا التكل المفاجيء بحيث ان القواسم التي بها يتمكن المضطهيدون ان يدمروا ويكسوا انفس حرية الفكر والقول في هذه المجالات (وهو مصدر اعظم الخزي والعار لعاده الوطن وزعمائه) ظلت كما هي غير معدلة ، مهياة للاستعمال . مشرعة كالسيف بأيدي غاصبيننا ومرتزمتينا (قبل مدة قصيرة جدا حكم على صاحب حانوت محترم بجريمة الكفر والتجديف لانه قال : «اذا بررت فتاة العصر حملها سفاحا بقولها انها حبلت بروح القدس ، فعلينا ان نعرف ماذا نستنتج !» وهي ملاحظة ما كانت لتخطر بباله لو علم كيف اقحمت الحكاية كلها على الانجيل اقحاما . ومع هذا فهي تستخدم بشكل ما ضد الفقراء . انها تستخدم بشكل يفتقر الى الحماسة ، وعندما نتأمل بأن ثمانية قرون مضت وانقضت منذ ان تجرأ اول الباحثين على الهمس بسر مهنة له وهو ان اسفار التوراة الخمسة الاولى لا يمكن ان يكون كاتبها موسى حتى قال اسقف كولينزو (1) ان لم تخني الذاكرة - الشيء نفسه

1 - احد الكتاب الدينيين . هوجم لنقده اجزاء من التوراة . وعزل تسم
أعيد الى منصبه .

علانية فمنع من الوعظ ثم حرمته الكنيسة . ان النقطة التي يدور حولها البحث وان كانت تقنياً هامة بالنسبة لعلماء المخطوطات القديمة والمؤرخين الا ان تأثيرها على سعادة البشرية لا يزيد عن الخلاف حول : هل ان الكتابة «الإنشائية» اقدم شكل للخط ام هي الكتابة «الكوسية» (٢) ومع مرور هذه المدة بل وبعد خمسين سنة على زندقة اسقف كولينزو لم يعد هناك رجل دين او اي مرجع من الاحياء او اي مدني مثقف يستطيع التصريح دون ان يتعرض للسخرية - بان موسى كتب الاسفار الخمسة مثلما كتب باسكال افكاره ودوبنيه تاريخه عن الاصلاح الديني ، او كتابة القديس جيروم الفقرة الخاصة بالشهود الثلاثة نسي الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس او ان هناك لا اقل من ثلاث روايات مختلفة عن الخليقة خبطت بعضها ببعض عشواء في سفر التكوين . واليوم فان اشد التقدميين جنونا لا يسه ان يجادل في تقدمنا بسبل الحكمة والتحرر اللذين بلغا في نصف القرن المنصرم اعظم مما بلغاه من مراق في غضون ستة عشر بضعا من القرون التي سلفته : صحيح انه قد يكون من الاسهل تأييد الافتراض بان السنوات الخمسين الاخيرة شهدت رد فعل ملحوظ من التحرر الفكتوري الي الجماعية الاشتراكية التي مكنت مذاهب الدولة (٢) وقوتها بشكل واع ، ومع هذا فقد بقيت

١ - Cursire , Uncial هما نوعان من الخطوط الكتابية استخدمتا في تدبير الكتب القديمة . اولهما شبيه بالاحرف الحديثة الكبيرة «كابيتال» اما الثاني فهو الخط السريع المائل المتصلة احرفه وهو اقرب الي خط اليد الحديث .
٢ - يقصد شو بمذاهب الدولة هنا ، المذاهب التي تعترف بها السلطة المدنية رسماً وتتفق معها مبادئ واجتماعاً وسياسة فتتعاون معها .

الحقيقة قائمة وهي ، بما ان «قايين» بايرون (1) المطبوع قبل قرن مضى كان التجربة الرائدة في نقطة عدم وجود حقوق طبع في كتاب تجديفي فان جمعية جيش الخلاص قد تدخله اليوم في عداد مطبوعاتها دون ان تصيب احدا بصدمة .

واني اميل للقول بان الاسباب التي وطأت لمثل هذه التنقية الفجائية للجو تتضمن تغيير كثير من الدول الحديثة . وأخص منها بالذكر ، الجمهورية الفرنسية المكتفية بذاتها وجزيرة بريطانيا الضيقة الرقعة الصغيرة وتحويلها الى امبراطوريات تفرح حدود كل البيع . في الهند مثلا يوجد أقل من اربعة ملايين مسيحي بين السكان الذين يبلغ تعدادهم ثلاثمائة وواحد وستين مليونا ونصف مليون وملك انكلترا هو حامي حمى الايمان ولكن اي ايمان هو المفصود الآن ؟ ان سكان هذه الجزيرة على حد ما يذكره الاشخاص الذين ما زالوا احياء ، قد ادعوا ان دينهم هو دين الله وان البقية كلهم زنادقة ولكننا نحن سكان الجزيرة لا يزيد عددنا عن خمسة واربعين مليونا واذا اعتبرنا انفسنا مسيحيين جميعا فما زال ثم سبعة وسبعين مليونا من المسلمين في الامبراطورية . اضعف الى هؤلاء الهندوس والبوذيين والسيخ والجاين اولئك اللذين لقيت في طفولتي عن طريق التعليم الديني - اعتبارهم من اعظم الوثنيين المتركين الذين قضى عليهم بالهلاك الابدي . الا اني قد اتعرض للعقاب اليوم لو اني حططت من قدر دياناتهم بكلمة فيها استنقاز ، ولديك ما يزيد مجموعه العام عن ثلاثمائة واثنين واربعين مليونا وربع مليون ، منهم والشيء بالشيء يذكر ستة آلاف فحسب يطفون على انفسهم بصورة دؤوبة اسم تلاميذ

1 - مأساة صخرية كتبها الشاعر الانكليزي لورد بايرون وهي تحكي قصة مقل هابيل على يد قايين .

المسيح والباقيون هم اتباع كنيسة انكلترا وطوائف اخرى تلمذتهم للمسيح اقل من اولئك ظهورا وثباتا . ومجمل القول ان انكليزي اليوم بدلا من ان يكون عملا مواطنا دولة مسيحية بكليتها مثلما كان اسلافه الذين يتمسك حاليا بآرائهم ، تجده في الواقع منحصرنا جدا في زاوية من الامبراطورية حيث يؤلف المسيحيون فيها احد عشر بالمائة من مجموع السكان لا اكثر . وهكذا فان «المنشق» (1) الذي يفضل ان يباع مسند مظلاته بالميزاد العلني على ان يدفع ضرائب لمساعدة كنيسة انكلترا يجد نفسه وهو يدفع ضرائب لا لافائة الكنيسة الرومانية في مالطة فحسب بل لاجل ارسال المسيحيين الى السجن محكومين بجريمة الكفر المتضمنة عرض التوراة للبيع في شوارع مدينة الخرطوم .

وتعال الى فرنسا وهي بلاد اكثر انعزالا في انشغالها بلفتها وتاريخها وهويتها الشخصية بعشر مرات منا نحن الذين استكشفتنا واستعمرنا وتدمرنا وثرنا . هذا الشعب الذي كان يوما ما مستقلا بنفسه ، يعد الآن اربعين مليونا . على ان مجموع مواطني الجمهورية الفرنسية هو حوالي مائة واربعسة عشر مليونا . والفرنسيون ليسوا كاقليتنا المسيحية التافهة التي لا تتعدى 11 بالمائة وانما هم الاقلية الكبيرة البالغة 35 بالمائة ذات الكلمة

1 - المنشقون او اللامؤيدون : Nonconformists تلك الكنائس التي انشقت عن الكنيسة الانجلكانية الرسمية في انكلترا (القرن السابع عشر) . هؤلاء المنشقون كانوا حتى اوائل هذا القرن يعارضون قانون التعليم الذي تسميه عليه الدولة . لانه اوجب دفع شيء من الدخل الفردي بمشابة اعانات لمدارس الانجليكان وكان هؤلاء يرفضون طبعا دفع الضرائب لتمويلها . ولذلك كانت مقتنياتهم تتعرض للحجز والبيع تسديدا للضرائب المذكورة ، كما كانوا يرجون في العجز بسببها !

الحاسمة الى حد ما . وبما انهم شعب منطقي اكثر منا فقد تخلوا رسميا عن المسيحية وأعلنوا ان الدولة الفرنسية لا دين لها متعين . والدولة البريطانية مثلها هي الاخرى ، الا انها لا تقر بذلك . وليس من شك في ان هنالك اناسا ابرياء كثيرين فيها يتأثرون وجهة نظر شارلمان وهم يعرضون المسيحية على التسعة والثمانين بالمائة من وثنينا كبديل عن الموت (ويؤسفني قول هذا) لسولا الانطباع الغامض عندهم وهو ان هؤلاء الضالين سيهتدون السبيل الذي المسيحي شيئا فشيئا بمجهودات جمعيات التبشير . على انه ليس ثم سياسي او رجل دولة يؤمن بهذه الاوهام الابرتشية السخيفة . وليس بمقدور ملك انكليزي او رئيس جمهورية فرنسي ان يمارس الحكم زاعما ان لاهوت (بطرس وبولس) او (لوثر وكالفن) له صحة موضوعية او ان المسيح اكبر من (بودا) او ان يهوه اعظم من كريشنا او ان يسوع انساني اكثر او اقل من محمد او زرادشت او من كونفوشيوس . انه مضطر عملا - ما دام يقوم بسن القوانين ضد الكفر عموما ، الى معاملة كل الاديان وبضمنها الدين المسيحي معاملة الزبغ والهرطقة عندما تعترض امام الناس الذين لم يتعودوها او يقبلوا بها وهذا ايضا امتياز لتعصب صار يجب على الامبراطورية لاستئصاله ان تستخدم سلطتها في مراقبة التعليم .

من جهة اخرى ، ليس بمقدور الحكومة في الواقع ان تشجرك من جلباب الدين او حتى ان تبرا من عقيدة ما . وعندما قال يسوع ان الانسان يجب الا يكتفي بالعيش فحسب بل ان يعيش حياة اكثر فزارة وانتاجا ، فقد كان يستن مبدأ . وهناك كثير من الحكماء المتشائمين امثال شكسبير الذين توسل احد ابطلسال مسرحياته بصديق له راجيا منه ان يعمل جهده ليثنيه عن الانتحار فنصحه بقوله « ابعث نفسك عن السعادة ردحا من الزمن » قد يؤكدون رأيهم العظيم الضرر (والواقع ان كثيرا من الوعاظ

والقديسين يصرحون وبعضهم باسم يسوع نفسه) ان هذا العالم هو وادي الدموع . ومن الافضل لنا ان نصرف عمرنا في الحزن بل حتى في العذاب استعدادا لحياة مقبلة افضل من حياتنا هذه . الا ارح هؤلاء الحزاني ، وسيسلمونك الى الحيرة والدهشة حين نجدهم يرتدون قمصانا من الشعر الخشن .

مع ذلك فعلى الحكومات ان تعمل وفق افتراضات مبدئية ، وسواء في ذلك اسموها مبادئ ام لم يسموها فمن الواضح انه يجب ان تكون قواعد مقبولة من النفوس بحيث تصم مسن يرفضها بالشذوذ والجنون . وكلما اشد تنوع السكان واختلافهم في الخواص كلما وجب ان تكون تلك المبادئ ادمى الى القبول . فمن الممكن ان يدار دير الرهبان السكوتيين (١) يمبداً من المبادئ قد يثير في ظرف اربع وعشرين ساعة هياج اهل القرية المجاورة فتدنو الفتنة حتى تطرق ابوابه ذلك لان الدير هو الذي يختار نزلاءه وان لم يرغب الراهب السكوتي فله ان يتركه . لكن مواطن الامبراطورية البريطانية او الجمهورية الفرنسية لا يخضع لعملية اختيار ما . فالانتقال والهجرة غير عملية الا في حدود ضيقة وهي قلما تكون علاجاً ناجحاً وكل المواطنين اليوم متشابهون الى ابعد حد . وواضح بدون شك لكل من كان قادراً على فهم معنى الحكومة بشكل من الاشكال ، ان مجموعة المبادئ الرئيسية التي صيغت بالمواد التسع والثلاثين (٢) او في الاقرار الويستمنستري (٣)

-
- ١ - رهبنة كاثوليكية نذر اعضاؤها الصمت الدائم طول العمر .
 - ٢ - جملة قواعد ومبادئ تحكم اكليروس الكنيسة الانجليكانية وهي مطبوعة عادة في كتاب الصلوات الانكليزي .
 - ٣ - وثيقة كتبها في ١٦٤٣ جمعية الاحبار التي التأم في وستمنستر بناء على دعوة البرلمان لاجراء تسوية للخلافات الدينية التي كانت تجتاح البلاد . ومع

هي بدون جدال غير صالحة مطلقا لتكون قواعد سياسية
للامبراطوريات الحديثة . ان الايمان الشخصي بها من قبل اي
فرد يعيل الى اخذ مسألة الايمان مأخذ جد انما يجرده شخصيا
من اهلية تسنم منصب امبراطوري رفيع . ان (نائب ملك) في
الهند (كالفني) النزعة مثلا ، او وزيرا للخارجية يعتنق المذهب
المعمداني المستقل، كفيلان بان يطوحا بالامبراطورية في المهالك . وآل
ستيوارت بمنطقهم الاسكتلندي ومبدئهم اللاهوتي حطموا هذه
الجزيرة الصغيرة التي كانت نواة الامبراطورية . وما يمكن ان
يؤيده المرء بشكل معقول هو ان براءة الانكليز المزعومة في الحكم
الذاتي الذي يناقض كل مرحلة من مراحل تاريخهم ، ما هو في
الحقيقة الا عدم براءة لا امل في شفائه . عدم براءة وتخبط في
الالهيات ، والفكر المنظم وأي جهة من الجهات الاخرى مما يجعلهم
كذلك قليلي الصبر على الحكم المنظم او الصالح المنتظم ، ما دام
تاريخهم تاريخ شعب اسوء حكمه وشاءت الصدفة المحصنة ان
هاش في حرية بدرجة «نسبية» ! وهكذا فنجاحنا في استعمار
البلاد عندما تم من دون اللجوء الى اباداة سكان المستعمرات كان
بسبب عدم اهتمامنا بخلص انفس رعايانا ، ويستثنى من ذلك
ايرلندا (وهي الدليل الشاخص على عجز الانكليز عن الاستعمار الا
بإياداة المواطنين) وهي ايضا البلاد الوحيدة الخاضعة للحكم
البريطاني حيث ينطلق المستعمرون الفاتحون من افتراضهم ان
مهمتهم انما كانت تشبث اصول البروتستانتية فضلا عن جموع
المال ، ومن ثم ضمان حياة السكان البائسين الذين يجمع ذلك
المال من كدهم وعملهم على الاقل . في هذه اللحظة ترفض اولستر

ان الفرض منها هو ان تكون بديلا للمبادئ التسع والثلاثين الا انها اصبحت
قانونا لكنيسة اسكتلندا البريستواوية .

قبول المواطنين مع الاقاليم الايرلندية الاخرى لان الجنوب يؤمن
بالقديس بطرس وبوسويه (١) والشمال يؤمن بالقديس بولس
وكالفن . الا فلنتصور تأثير محاولة حكم الهند او مصر من مركز
بلفاست (٢) او الفاتيكان .

ولعل الوضع بالنسبة الى فرنسا اخطر من الوضع بالنسبة
الى انكلترا ، لان الخمسة والسنين بالمائة من رعايا الفرنسيين
الذين ليسوا هم بالفرنسيين ولا بالمسيحيين ولا بالتجديدين .
يضمون حوالي ثلاثين مليوناً من الزوج الذين يمتازون بالحساسية
والحساسية الشديدة ضد الاهتداء الى تلك الاشكال الخلاصية من
المسيحية الزائفة التي نجم عنها كل الاضطهادات والحروب الدينية
خلال القرون الخمسة عشر الماضية . عندما حدثني المستكشف
الرائد المرحوم هنري ستانلي عن القبضة المحكمة العاطفية التي
تمارسها الديانة المسيحية على قبائل البانغاندا وقرأ لسي
رسائلهم التي كانت تشبه تماما رسائل القرون الوسطى بايمانها
الخرافي الحرفي وورعها البادي ، سألته : « ايمقدور هؤلاء ان
يستعملوا بندقية ؟ » فأجابني ستانلي بشيء غير قليل من التهكم :
« طبعا انهم لقادرون كأي رجل ابيض ! » والآن في هذه الساعة من
العام ١٩١٥ نتأجج نيران حرب اوروبية واسعة النطاق ، وفيها
يستخدم الفرنسيون جنوداً سنغاليين ، يطيب لي ان أوجه سؤالاً
الى الحكومة الفرنسية التي تشبه حكومتنا بتركها عمداً التعليم
الديني لهؤلاء الزوج في ايدي مبشرين من الكاثوليك البطرسيين
والكالفنيين البولسيين وهذا السؤال هو : هل تفكر في الشروع
بسلسلة جديدة من الحروب الصليبية جنودها خلاصيون افارقة

١ - (١٦٢٧ - ١٧٠٤) لاهوتي فرنسي وداعظ ساحر اللسان .

٢ - عاصمة ايرلندا الشمالية .

متحمسون لاجل انقاذ باريس من قبضة الكفار العصريين العلميين تحت شعار : «الا فلنعد الى الرسل ! الا فلنعد الى شارلمان ا» .
اننا لاسعد منهم حظا لان الاغلبية الساحقة من رعايانا هم هندوس ومسلمون وبوذيون ، اعني ذوي ديانات عصرية خاصة رقيقة تقوم بمثابة عامل وقائي من المسيحية الخلاصية . ان الديانة المحمدية التي عدتها نابوليون في اواخر حكمه بأنها على اقرب احتمال خير دين شعبي يصلح للتطبيق السياسي الحديث ، كانت ستبرز كمسيحية مستصلحة لو ان محمدا بشر برسائلته بين مسيحيين من اهل القرن السابع عشر بدلا من العرب الذين عبدوا الحجر .
وكما انت واجد ، الناس اليوم لا يبنذون محمدا لاجل الانضواء الى كالفن . وانك اذ تقدم للهندوسي لاهوتا كلاهوتنا بمثل هسه السداجة بدلا من لاهوته ، او تقدم له ادبيات الشرائع اليهودية بوصفها نسخة محسنة للادبيات الهندوسية ، كنت كمثمل من يقدم مصابيح قديمة عوضا عن مصابيح اقدم في سوق تكون اقدم المصابيح اعلى قيمة من سواها ، كالاثاث القديم في انكلترا .
مع هذا فلاكرر انه يتعذر وجود حكومة بدون دين ، اي بدون مجموعة من مبادئ شعبية مقبولة عموما . فالعقل المتفتح لا يعمل قط : ونحن عندما نحاول جهدنا الوصول الى نتيجة معقولة ، ما زلنا نجد انفسنا مضطرين الى ان نطبق عقولنا اطباقه محكمة هنيهة من الوقت لتتبع استنتاجاتنا بشكل لا مرد له عندما نعجز عن الاستقصاء او التحكيم العقلي . ان الانسان الذي يزجي الوقت الطويل في تنظيم وصية له معقولة تماما يموت من دون وصية . والمنصف الذي بلغ انصافه حدا لا يجد معه حرجا في السرقة والقتل او في الحاجة الى الطعام او التناسل ربما كان الاجدر به ان يصير وغدا احمق من ان يفدو مشترعا او رجل دولة . ورجل السياسة العصري مزيف الديمقراطية الذي يزعم انه لم يات الى الحكم الا لينفذ ارادة الشعب فتكون حركاته اشبه

بقفزات الهره . هو ولا غرو لص مثقف ولص سياسي . وحكم الرجل السلبي اللاعقيدي يعني في الواقع العملي حكم الرعساع بنصه وفصه . وحرية الضمير حسب التعبير الذي استنبطه كرمويل هو شيء ممتاز ومع هذا فلو اقترح احدهم تطبيق قاعده حرية الضمير بخصوص اكل لحوم البشر في انكلترا ، لكان كرمويل سيطرحه ارضا وبهوي عليه ضربا بالفلقة بالفوريسه والاصالة التي يستخدمها مع اي كاثوليكي تابع لروما . وان كان في فيجي سبساند من كل قلبه حرية الضمير النباتي التي تستخف بالطعام المقدس المسمى «لونغ بينغ» (1) .

هاهنا اذن تأتي اهمية انكار يسوع عمل الهداية . وقاعدته هي هذه : «لا تقلع الحسكة . وابذر الفمح . ولو حاولت قلع الحسكة لقلعت السنبلة معها» . وتلك هي القاعده الممكنة الوحيدة لرجل الدولة الذي يحكم امبراطورية عصرية ، او لناخب يساند مثل هذا السياسي . ليس هناك في تعاليم يسوع ما لا يمكن ان يوافق عليه برهماني او مسلم او بوذي او يهودي دون حاجة الى اهتدائهم للمسيحية ، او سؤالك اياهم ذلك . ومن بعض النواحي يكون الجمع بين المسلم وبين يسوع اسهل عليك من الجمع بين بريطاني ويسوع لان فكرة الكاهن المحترف هي فكرة غير مألوفة . ان يسوع لم يقترح على تلاميذه تفضيل انفسهم عن جمهوره المؤمنين . فقد التقطهم من قارعة الطريق حيث لكل امرأة او رجل ان يتبعه . وانك لا تجد لديه كلمة طيبة مهذبة للكهنة ولذا اظهروا روح عدائهم له بالسعي لقتله بأسرع ما امكنهم . كان بموجز القول خصما للكهنة على طول الخط . ومع اننا لا نستطيع — كما رأينا — ان نضع مبادئه موضع تطبيق الا بالوسائل السياسية فانه لم يبق

1 - «Long Pig» كناية عامية من لحم الانسان !

جامدا عند حدود شجبه اقامة الشوقراطية الطائفية كشكل من اشكال الحكومة . وكان سيتنبأ بدون شك بسقوط المرحوم الرئيس كروغر لو وجد في زمانه (١) بل لرفض ان يتسیر على تلاميذه عندما جوبه بالتحدي - بان بمتنعوا عن اعطاء ضريبة قيصر (٢) ، مسلما بان لقيصر مكانته في تصريف الامور (ومفروض لقيصر بان له ملكوت السماء كأي تلميذ من تلاميذه حسب الحق يقال ان التلاميذ جعلوا من هذا عدرا لاطهار تبعيتهم وخضوعهم للدولة القائمة ، حتى انحدروا الى هاوية الشرك التي انتهت بنظرية (حق الملوك الالهي) فاثاروا الناس حتى دفعوهم دفعا الى قطع رقاب ملوكهم لاجل تحقيق بعض التعادل في الوضع الراهن . ولا شك ان يسوع لم يفكر في تحطيم الامبراطورية الرومانية واحلال منظمة كنيسية محل الكنيس اليهودي او محل نظام كهنوت الآلهة الرومانية كجزء من برنامجه . قال ان الله خير من (مامون) ولكنه لم يقل ان التوام الواحد هو خير من التوام الاخر (٣) ولهذا كان بوسع المواطنين البريطانيين ورجال سياستهم اتباع تعاليم المسيح وان لم يكن في استطاعتهم اتباع هذا التوام ام ذلك والا سببوا في انحطام الامبراطورية وتكسرها على رؤوسهم . والى هذه المرحلة يجب ان اتوقف في الموضوع .

(١٩١٥)

١ - Paul Kruger (١٨٢٥ - ١٩٠٤) رئيس جمهورية الترانسفال،
وزعيم حرب الورد الشهيرة التي قادها ضد الانكليز في جنوب افريقيا
(١٨٩٩ - ١٩٠٢) .

٢ - اشارة الى ما ورد في الانجيل .

٣ - هكذا اوردها شو وهي من مماحكاه اللغوية : Tweedledum,

Tweedledee ويعني بهما التوامان في قصة الاطفال الشهيرة (اليس في المرأة)

٣٠٠٠ / ٧٩ / ٦١٩

هذا الكتاب

هذا الكتاب وهو من ضمن سلسلة نقد الفكر الديني التي تقوم دار الطليعة بنشرها - يتصدى إلى تحليل العقيدة المسيحية على ضوء المفاهيم الخلقية والسياسية الحديثة بأسلوب شو اللاذع الساخر الذي ينتزع الإبتسام من أشد الناس عبوساً . لأول وهلة يبدو شو منكرأ للشرعة التي قدمها المسيح للانسانية ، لكنك تجده في الحقيقة يشرح الدور القدر الذي لعبته مصالح طبقات معينة لتشويه تلك العقيدة وإبعادها عن المفهوم الانساني الذي قصده « المسيح » نفسه

صدر في هذه السلسلة :

- ١ - نقد الفكر الديني : د. صادق جلال العظم - ٢ - نقد الفهم العصري للقرآن : د. عاطف احمد - ٣ - الثالث المحرم : بو علي ياسين - ٤ - جدلية القرآن : د. خليل احمد خليل - ٥ - التوحيد في تطوره التاريخي : ثريا منقوش - ٦ - في الدين والتراث : هادي العلوي - ٧ - حول الدين انجاز - ٨ - الماركسيون والدين : ميشال فيريه - حول الدين : لينين - ١٠ - صلة القرآن باليهودية ويلهلم رودولف - ١١ - موسى والتوحيد : سيف

Bibliotheca Alexandrina



0389792

ل.
لما

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

To: www.al-mostafa.com